الفصل الأول
ضوابط نظرية الغزل

- في القرآن الكريم.
- في السنة النبوية الشريفة.
- عند الصحابة والتابعين.
- عند الفقهاء.

الحديث عن الغزل ، هو الحديث عن الحسن المحسوس الظاهر ، والجمال المعقول الباطن ، الذي جعل الله الإحساس به ، والتفاعل معه ، بالميل إليه وتقديره ؛ فطرة أودعها الإنسان ، إذ زوده بأدوات استقباله ، ووهبه العقل مميزاً بين حسنه ورديئه ، وعزز فيه القدرة على بلورته ، والرغبة في التعبير عنه .

ولما كان حسن المرأة زينة ظاهرة ، وجمالها المستتر حسناً باطناً ، لافتاً للرجل بدافعية الفطرة أولاً ، وبغريزة بقاء النوع ثانياً ، كان طبيعياً أن تتنفس عواطفه بغزل إعجاباً وحباً ، وأن تنعكس رغبته في ذلك طلباً وسلوكاً .

وإذا كانت مفاهيم الإسلام ضوابط لسلوك الإنسان في الحياة الدنيا نحو الآخرة ، فإن هذا الحب الناشئ عن الميل ، المعبر عنه بالغزل ، احتواه الإسلام بضوابط شرعية ، وحرسه بقواعد عقدية ، فكان منه لون مذموم منكر ، ولون آخر مباح لا تثريب على فاعله في التنفيس به عن مشاعره .

وجاءت الإشارة إلى الغزل المذموم مقروناً بالأغراض الشعرية ، بعموم الدلالة وشمول القصد ، لا بخصوص الإفراد وقيد التحديد في قوله تعالى :﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ إذ بين الله في هذه الآيات قبائح شعراء الباطل[1] في الغواية والهيام والكذب ، إذ (الغاوون) زائلون عن الحق شعراء وأتباعاً[2] ؛ لأنهم يتبعون هواهم بغير علم ، وهذا خلاف الرشد[3] . والهائمون ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ مخالفون للقصد في كل شيء ، جائرون عن كل حق وخير[4] ، يمشون بغير قصد ولا تحصيل[5] في كل واد من أودية القيل والقال ، وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال يهبطون ، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يتحيرون[6] .

---

(١) فتح القدير للشوكاني : ١٣٩/٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٤٥/١٣ .

(٣) الاستقامة لابن تيمية : ٢٨١/٢-٢٨٢ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٩١/٢ ومعاني القرآن للفراء : ١٠٨/٥ .

(٥) أحكام القرآن : ١٤٢٨/٣ .

(٦) روح المعاني للألوسي : ١٩ ص١٤٦ .

قال الحسن البصري : «قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها ، مرة في شتيمة فلان ومرة في مديحة فلان»(١) . والكذابون ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يتكلمون بالباطل بما لا يفعلون ، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول(٢) .

وانتهى الزمخشري (ت٥٢٨هـ) بالإشارات العامة في الآيات السابقة إلى تحديد مقاصد الغواية ، ومهاوي الضلالة ، بانحراف الشعراء فيما يتناولون من معان في الأغراض المختلفة فقال : «إنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون والسفهاء والشطار»(٣) .

وشايع المفسرون الزمخشري في التأكيد على أن الغزل بأنواعه من التشبيب والنسيب والابتهار ، والمدح والهجاء ، أغراض مخصوصة بالقصد في الآيات الكريمة ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ مع تباين في ربط هذه الأغراض بمنطوق الآيات ، فأبو بكر بن العربي (ت٥٤٣) رصد ذلك في ظلال قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فقال : «يعني ما يذكرونه في شعرهم من الكذب في المدح والتفاخر والغزل والشجاعة»(٤) . والألوسي يذكرها في حمى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ بقوله : « . . . ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية ، والقدح في الأنساب الطاهرة السنية ، والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ، والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء»(٥) . أما الشوكاني فجعل هذه الأغراض وغيرها ، صدى للهيام والكذب ، ففي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال : «إنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون ، وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ٦٦٣/٢ .

(٢) أحكام القرآن : ٣/ ١٤٢٩ .

(٣) الكشاف للزمخشري : ٢٤٣/٣ .

(٤) أحكام القرآن : ١٤٢٨/٣ .

(٥) روح المعاني : ١٤٦/١٩ .

الحق ويمدحون الباطل ويرغبون في فعل المحرمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات، كما نسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة» . وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال الشوكاني أيضاً : «أي يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة في ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله، كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، وأنهم فعلوا بهن كذا وكذا، وذلك كذب محض وافتراء بحت»(١) .

وزاد المفسرون الأغراض الشعرية المرغوب عنها بياناً بالإشارة إلى نماذج شعرية دالة على الفاسد منها في الغزل والمدح والفخر، أما الهجاء فهو أفسدها، ولذلك حادوا عن ذكر نماذج له، وأما المذموم في الغزل الذي لا يحل سماعه، وصاحبه ملوم كما يقول القرطبي؛ لأنه يتكلم بالباطل، فقول الفرزدق : (٢) .

فَبِتْنَ بِجانِبَيَّ مُصَرَّعاتٍ ... وَبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الخِتامِ

وقول الفرزدق أيضاً يفخر بالزنا :

هما دَلَّتاني مِنْ ثمانينَ قامةً ... كما انقضَّ بازٌ أَقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُه

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا ... أَحيٌّ يُرَجَّى أَمْ قتيل نُحاذِرُه

فَقُلْتُ ارفعوا الأمراسَ لا يَشْعروا بنا ... وَوَلَّيْتُ في أعقابِ لَيْلٍ أُبادِرُه

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة(٣) :

أَلا لَيْتَ أَنّي يَوْمَ بانوا مَنِيَّتي ... شَمِمْتُ الذي ما بَيْنَ عَيْنَيْكِ والفمِ

وَلَيْتَ طَهُوري كانَ رِيقَكِ كُلَّهُ ... وَلَيْتَ حَنُوطي مِنْ مُشاشِكِ والدَّمِ

ويا لَيْتَ سَلْمَى في القُبُورِ ضَجِيعَتي ... هُنالِكَ أو في جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

---

(١) فتح القدير : ١٤٠/٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٤٩/١٣، وأحكام القرآن : ١٤٣١/٣ .

(٣) الأبيات تنسب لعمر ولغيره ايضاً (انظر شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ص٥٠١) .

وقول كثير عزة :

رُهبانُ مَدْيَنَ والذين عَهِدْتُهم يَبْكونَ مِنْ حَذَرِ العَذابِ قُعُودا
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلامَها خَرّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسُجُوداً(١)

ويُؤَوِّل فهم المفسرين في الغزل إلى إدراك منطلقاته الأساسية في الكذب والافتراء والزور الخالص ، المتضمن قذف المحصنات بأفاعيل لاحقة بالوهم والخيال ، لا بالحقيقة وصدق الحال ، تسلية للنفس بالأباطيل ، وتحسيناً للقول بزخرف السرد من السعي والدبيب وحكاية الأقاصيص ، حفزاً للمتلقي إلى فعل المنكرات ، وتهويناً له بارتكاب المحرمات .

وفي حمى هذا الفهم بلور المفسرون ألواناً من الغزل التي يتداولها الشعراء ، وهي واقعة في مقاصد الآيات ومراميها ، كالتشبيب (الذي يكون أول الشعر) والنسيب : وهو الرقيق من الغزل ، والغزل الذي يجري فيه ذكر مفاتن المرأة وما يتحقق من وصال الرجل لها بذكر الزنا ومقدماته ، والغزل بالغلمان وأحاديث اللواط وما أشبه من المجون بمعناه الأساس من الفحش والقبح .

وغير خاف أن هذه الألوان الغزلية جارية في دائرة الغواية صادرة عن مدار الضلالة ، يستوي في ذلك ما كان نموذجاً للفحش إخباراً وقصاً (أبيات الفرزدق) ، وما كان انحرافاً عن جادة الأماني وسلامة التصور (أبيات عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة) ، وهي بذلك مباينة لشرف المعنى الذي سعى الإسلام إلى تقعيده منطلقاً تأسيسياً للأغراض الشعرية عامة والغزل خاصة .

والعلاقة الطردية بين صفات الشعراء الضالين ، الزائلين عن الحق ، الهائمين في كل واد ، والألوان الغزلية الفاسدة ، تتجافى عن تصور الإسلام للإنسان الذي كرمه الله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٢) ، وأعده لخلافة الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

---

(١) أحكام القرآن : ٣/١٤٣١ .

(٢) سورة الإسراء : آية رقم ٧٠ .

﴿ ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[1] . إذ إنها تتحقق بوجوده ، وذلك بالالتزام بالأساس البنائي لأركانها ، وهو التقيّد بأحكام الشرع الذي هو فرض على كل مسلم ؛ تحقيقاً لمصلحة العباد ، التي يحتّمها الإيمان بالإسلام .

والشاعر إنسان مرعي بالتصور الإسلامي الشامل المتوازن ، مكلف به حتى في مشاعره وعواطفه ؛ لعموم الأمر في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] ، إلا أن تبعة اختصاصه بالشعر ، واشتماله بالرعاية الإلهية والمنحة السماوية في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[3] تجعله مطالباً بإيلاء ذلك بالشكر والإحسان في التصور والقول ، إذ هو مأجور في هذا الإحسان ؛ لأنه فيما يرضي الله عز وجل ، غير أنه موزور إن حاد عنه إلى الإفساد . وغير خاف أن تناول المرأة بالغزل ، موضع من مواضع الاختبار ، وتجربة من تجارب الابتلاء والامتحان في حمى الزيادة في الخلق ، والتميز في التصور والأداء .

وإذا كان جانب من الخطاب القرآني في أواخر سورة الشعراء ، جاء مركوزاً في المسوغات الموضوعية والفنية لرفض غزل الضُّلال والسفهاء والفساق من الشعراء في قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ ، فإن الوجه الآخر للخطاب القرآني فيه إشارة لزومية لإباحة أغراض الشعر المرفوضة ومنها الغزل ، إذا صدرت عن نفسية ذات ميول منضبطة بمفاهيم العقلية الإسلامية التي تجعل العقيدة الإسلامية أساساً للتفكير والميل ، يقول تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٠٨-٢٠٩ .

(٣) سورة فاطر : آية ٣٥ .

فالإيمان (عقيدة) ، وعمل الصالحات وذكر الله والانتصار من الظالم (أحكام شرعية) ، تشكل جميعاً قاعدة فكرية تتحصن بها تجربة الشاعر المسلم ، فتأمن زلل الفكر ، وتحيد عن فاسد المشاعر ، إذ إن الله عز وجل عالج بالأحكام الشرعية ميول الإنسان الصادرة عن غرائزه العضوية وحاجاته النفسية تجاه المرأة ، معالجة واقعية صادقة ، تنظم الغرائز ولا تقضي عليها ، تهذبها ولا تضر بها ، تنسقها ولا تطلقها ، فيصير الأمر بهذه المنهجية إلى إشباع الغرائز والحاجات إشباعاً متناسقاً ، ينتهي إلى الاستقرار ويؤدي إلى الاطمئنان[1] .

فالإسلام لا يغفل عن العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولا يتنكر للمشاعر الخاصة التي يتنفس بها التجاذب الفطري بين الجنسين بالخطاب والميل والسلوك ، إلا أنه يحوطها برعايته ويقيسها بمعياره الذي يزن به كل شيء ، فما جرى منها في ميدان الفطرة وناموسها فهو الصالح المقبول ، وما تجافى عنه وخرج عن قانونه وسياجه فهو الباطل المرفوض ، ولذلك كان مطلوباً من هذه الفطرة أن تتهذب وتسمو ، إذ «إن هدف الوجود كله كما يعبر عنه الإسلام وحقائق الوجود – ليس هو مجرد استمرار الحياة ، ولكن رقيها والوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال»[2] .

وقد عرض القرآن الكريم لبعض أنماط الخطاب بين المرأة والرجل بما يوحي بواقعية الإسلام في تصوره ومنهجه ، ويكشف عن الجمال والكمال في أدائه وتصويره ، فمن ذلك «المودة» في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[3] ، إذ في (المودة) دلالة مقيدة هي المحبة كما قال السدي ، أو حب الرجل لامرأته كما قال ابن عباس[4] . وفيها دلالة مطلقة جامعة لكل ما تستوجبه المحبة (وهي ميل وعاطفة) من أدوات التعبير في الخطاب والحركة عن الشوق

---

(١) الفكر الإسلامي ، محمد محمد إسماعيل عبده : ص٧٠ .

(٢) منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب : ص٧١-ص٧٢ وانظر المرجع نفسه (العواطف البشرية والتصور الإسلامي) : ص٦٥-٨٤ .

(٣) سورة الروم آية : ٢١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٧/١٣ .

والانجذاب ، تفعيلاً للمودة ، وتأكيداً للمحبة بصورة من الصور ، وينبه القرآن الكريم لهذه العلاقة بين الزوجين بصورة حركية قولية ، ذات جمال وكمال في تكثيف اللفظ ، وتهذيب الأداء والتعبير في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴾(١) .

ففي الآية إفصاح عمّا يجب أن يكنى عنه من اللفظ الفاحش ، إذ الرفث : أصله قول الفحش ، يقال رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح ، «قال الزجاج : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته»(٢) . وفي الآية أيضاً تهذيب في تصوير الفعل والحركة ، وسمو في التعبير عما يكون في هذا الموقف من الرفث في قوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ، حيث سمى الله عز وجل امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً ؛ لانضمام الجسد وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب(٣) . قال ابن قتيبة في تفسير ذلك : «لأن المرأة والرجل يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ، ويتضامان فيكون كل واحد للآخر بمنزلة اللباس»(٤) .

وقد يحمل قول (صفوريا أو صفيراء) ابنة شعيب عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾(٥) على أنه تعريض بإحساسها المعجب بموسى عليه السلام خاصة القوة والأمانة ، يقول محمد قطب : «فهذا عرض لعواطف أنثى نظيفة تجاه رجل ؛ عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته ، ثم أمانته المتمثلة في محافظته عليها وعلى عرضها وهي معه - وحدهما - في الطريق إلى الدار ، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحيية الخجول ، ويفهم أبوها عنها ، ويقرها ويزوجها للرجل الذي أعجبت به وعبرت - بطريقتها - عما أحست نحوه من إعجاب ، ثم يجيء القرآن فيقر

(١) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٥/٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٦/٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص١٤١ .

(٥) سورة القصص آية : ٢٦ .

هذه العواطف وهذا السلوك ، فيرويه رواية تقرير وصراحة وإثبات»[1] .

فهذا الإعجاب الذي صدر عن إحساس طبيعي في ميل المرأة نحو الرجل ، جاء منسجماً والفطرة البشرية ، ومتسقاً مع الناموس الإلهي في العلاقة بين الجنسين ، حفظاً للنوع الإنساني ، فلم يجاوز في تعبيره الحياء والخفر ، والتهذيب والرفعة ، والسمو في الخطاب في التعريض والإشارة ، ويعزز ذلك ما جاء النص صريحاً فيه برفع الحرج في مثل هذا الموقف من الرجال في خطبة النساء وهن في عدتهن ، إذ جعله الله عزّ وجلّ جائزاً بقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[2] . والتعريض كما يقول ابن قتيبة في الخطبة أن يقول الرجل للمرأة : والله إنك لجميلة ، وإن النساء لمن حاجتي ، وأشباهه من الكلام[3] ، مما ذكره كذلك تمثيلاً مالك وابن شهاب[4] . وهذا التعريض بالكناية باب من أبواب التعبير عن المحبة والميل .

وعلى النقيض من ذلك تماماً في الإحساس والغاية وأسلوب التعبير ، كان موقف زليخاء امرأة العزيز ، حيث راودت يوسف عليه السلام بقولها الذي حكى خبره القرآن : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، ذلك أن يوسف عليه السلام كان ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ بجماله الذي حباه الله به ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . وذلك ما دفع زليخاء إلى الإصرار على فعل الفاحشة : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[5] . ويلاحظ أن طلب الفاحشة في هذه السردية فيه التحول من السريّة إلى العلانية في المراودة ، هذا من جهة ، وفيه تنامي الإصرار على الفعل بإظهار القدرة على تنفيذ الرغبة ، إذ كانت هاتكة بقولها ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ جلباب الحياء ، كاشفة لستر العفاف ، من جهة أخرى ، «وإنما فعلت هذا حين

---

(١) منهج الفن الإسلامي : ص٧٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٥ .

(٣) انظر تأويل مشكل القرآن : ص٢٦٤ .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن : ج١٨٨/٣ .

(٥) الآيات من سورة يوسف : ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

لم تخش لوماً ، ولا مقالاً ، خلاف أول أمرها»[1] ، وفي ذلك صورة من صور المفاخرة بالتمكن ، والإذاعة بعدم المبالاة أو الخوف .

وصور القرآن الكريم مجريات الحدث بتكثيف شديد في اللفظ والحركة ، وتسام في التعبير ، وتهذيب في القص والحكاية ، وذلك في الألفاظ الإيحائية الحركية التالية : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾ ، ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ ، ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، وحمل الخبر المروي عن هذا الموقف صورة أو تصوراً لغزل زليخاء بيوسف عليه السلام فكان على النحو التالي :

قالت له : يا يوسف ، ما أحسن صورة وجهك!

قال : في الرحم صورني ربي .

قالت : يا يوسف ، ما أحسن شعرك!

قال : هو أول شيء يبلى مني .

قالت : يا يوسف ، ما أحسن عينيك!

قال : بهما انظر إلى ربي .

قالت : يا يوسف ، ارفع بصرك فانظر في وجهي .

قال : إني أخاف العمى في آخرتي .

قالت : يا يوسف أدنو منك وتتباعد عني!

قال : أريد بذلك القرب من ربي .

قالت : يا يوسف ، القيطون (المخدع) فرشته لك ، قم فاقض حاجتي .

قال : إذاً يذهب من الجنة نصيبي .

إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها [2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٩/١٨٤ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٩/١٦٥ .

وأياً كان نصيب هذا الحوار من الواقع أو الخيال ، فإن فيه صورة للمراودة بتنامي الخطاب من الغزل بالوجه والشعر ، والدنو والإغراء ، ليؤول في نهايته إلى خطاب صريح بالدعوة إلى المواقعة وطلب الفاحشة .

وهكذا يمكن القول إن القرآن عرض للونين من ألوان الغزل ، أحدهما : مذموم منكر ؛ لأن التلذذ بالجمال فيه مصادم للغاية الكونية التي أرادها الله من اجتماع الرجل بالمرأة في حفظ النوع الإنساني ، وبقائه وديمومة استمراره ، فضلاً عما يتصل بذلك من الإعلان والإذاعة ، رغبة في التفاخر بالقدرة على إتيان الأمر الشاق بالمعصية ، وانحرافاً عن الستر الذي يمن الله به على فحش بعض عباده إلى المجاهرة والإيذاء ، وعدولاً عن مقابلة إحسان الله بالتوبة والرجعة إلى معاداته بالإصرار على الذنب ، والإغراء به وتزيينه .

وثانيهما : مباح لا تثريب على فاعله إن باح لسانه بمكنون صدره ، سواء أكان تعريضاً بالرغبة في الزواج ، وتلويحاً بمقاصد الاقتران ، أم تصريحاً بالمحبة ، وإعلاناً عن المودة ، وذلك تجديداً لعلائق الزوجين بإنعاش المودة ، واستدامة الرحمة .

* * * *

ورعى التوجيه النبوي الإنسان في علاقته بالآخر إحساساً وميلاً وسلوكاً وقولاً ، قصداً إلى النقاء والرفعة في عموم الأمر وخصوصه ، فقد قال ﷺ : «كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه» قال ابن الأثير : «العرض موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن ينتقص ويثلب»(١) .

وفي الحديث أيضاً : «من عرَّض عرَّضنا له ، ومن مشى على الكلاَّء ألقيناه في النهر» قال ابن منظور : «تفسيره من عرّض بالقذف عرضنا له بتأديب لا يبلغ الحد ، ومن صرح بالقذف بركوبه نهر الحد ألقيناه في نهر الحد فحددناه . والكلاَّء : مرفأ السفن في الماء ، وضرب المشي على الكلاَّء مثلاً للتعريض للحد بصريح القذف»(٢) .

(١) النهاية في غريب الحديث مادة : عرض . ولسان العرب : مادة أبن : ٣٣/٩ ط بولاق .

(٢) اللسان : ج٤٦/٩ مادة عرض .

وحمل الخطاب النبوي الشريف صدى التوجيه القرآني العام في معاني الشعراء وأغراضهم التي حادت عن الجادة ، وانزلقت إلى قيعان التردي في الهاوية ، خاصة شعر الغزل الذي ترمى فيه النساء بقبح ، وتقذف فيه بسوء ، وجاء النص النبوي الشريف ذا مستويات ومراتب من النهي العام عنه ، والإباحة له بلون خاص ، والتعريض بما كان رفثاً منه ، أما النهي العام عن الغزل فقد تضمنه ما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعراً»(١) . فالحديث محمول على من أقبل على الشعر واشتغل به عن الذكر وتلاوة القرآن وطاعة الله ، وعلى الشعر القبيح المتضمن للكذب والباطل كذكر الخمر ومحاسن النساء الأجنبيات ونحو ذلك(٢) . وأما ما خصت به النساء بالذكر فقد جاء فيما روي من نهي الرسول ﷺ عن الشعر إذا أُبِنَتْ فيه النساء ، قال شمر : «أبنت الرجل بكذا وكذا إذا أزننته به (أي اتهمته به) وقال ابن الأعرابي : أبنت الرجل أَبِنُه وأَبُنُه ، إذا رميته بقبيح وقذفته بسوء ، فهو مأبون»(٣) .

ولذكر النساء في قصائد الغزل وجه آخر من قبح منهي عنه في رواية أخرى للحديث السابق ، وهو أن تصور المرأة راغبة في الرجل ، تعلن عن حاجتها ، وتشير إلى شهوتها فيه ، فقد أخرج الإمام الطحاوي الحديث السابق بلفظ آخر عن الإمام التابعي عامر بن شراحيل الشعبي ، أنه كان جالساً مع بعض الصحابة فكانوا يتناشدون الأشعار ، فوقف عليهم عبد الله بن الزبير ، فقال : «في حرم الله وحول الكعبة تتناشدون الأشعار؟! فقال رجل منهم : يا ابن الزبير ، إنَّ رسول الله ﷺ إنما نهى عن الشعر إذا أتيت فيه النساء ، وازدري فيه الأموات»(٤) . وتأتية النساء من قولهم : اسْتَأْتَتِ الناقة ، إذا أرادت الفحل .

وسواء أكان لفظ الحديث هو الأُبْنَة أم الأُتْيَة ، فإن مرتكز النهي في الحديث عن النساء في الشعر الغزلي هو الرفث والفحش ، يعزز ذلك ماجاء من صفة مجلس النبي ﷺ في حديث

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٥٤٨/١٠ حديث رقم ٦١٥٤ وصحيح مسلم بشرح النووي : ١٤/١٥ .

(٢) أضواء البيان : ج٦/٣٩٠ ، وانظر في مقاصد الحديث وفضاء دلالاته : نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده : ص١٧٢ - ١٨٢ .

(٣) اللسان : مادة ابن .

(٤) شرح معاني الآثار : ٩٧/٤ .

ابن أبي هالة أن «مجلسه مجلس حلم وحياء، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ فيه الحرم، أي: لا تذكر فيه النساء بقبيح، ويصان مجلسه عن الرفث، وما يقبح ذكره»(١).

قال ابن منظور: وقوله: «لا تؤبن فيه الحرم» أي: لا ترمى بسوء ولا تعاب، ولا يذكر منها القبيح، وما لا ينبغي مما يُسْتحى منه»(٢).

وللغزل المباح ذكر صريح في الحديث النبوي، وللمكروه منه تعريض فيه بقبحه، وإشارة إلى خبثه، ففي إباحته جاء الحديث الذي رواه أحمد: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أسود بن عامر ثنا أبو بكر عن أجلح عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة: أهديتم الجارية إلى بيتها؟ قالت: نعم، قال: فهلا بعثتم معهم من يغنيهم؟ يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

فإن الأنصار قوم فيهم غزل»(٣)

قال الهيثمي: «لعائشة أحاديث بغير هذا السياق - رواه البزار ورجاله رجال الصحيح»(٤).

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: ما فعلت فلانة ليتيمة كانت عندها، فقلت أهديناها إلى زوجها، قال: فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قالت: تقول ماذا؟ قال تقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء لم تسمن عذاريكم

فإن الأنصار قوم فيهم غزل»(٥).

---

(١) اللسان: مادة أبن: ١٦/١٣٩.

(٢) اللسان، مادة أبن: ١٦/١٤٠.

(٣) مسند أحمد: ج٣ ص٣٩١.

(٤) مجمع الزوائد: ٨/١٢٩.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط وفيه رواد بن الجراح وثقه أحمد وابن معين وابن حبان وفيه ضعف، ورواه ابن الجوزي البغدادي عن أبي عقيل عن نهبة (انظر تلبيس إبليس: ص٢٢٥).

وفي سردية هذا الحديث وحواره كشف عن عدد من الإشارات الدالة :

أولها : بيان عن أن الغزل طبيعة سائدة في مجتمع الأنصار (المدينة) ، ولعل في ذلك ما يشي بالميل المميز الظاهر إلى الجمال ، الذي قد يكون في نساء المدينة زينة طاغية ، والقلوب مطبوعة على حبه ، ومفطورة على استحسانه .

والباحث عن نماذج هذا الغزل في آثار الأنصار الشعرية فإن مصدره فيها هو شعر حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وأبي قيس بن الأسلت وغيرهم من شعراء الأنصار ، الذين كان شعرهم منذ عصر التدوين في القرن الثاني الهجري مجموعاً في (ديوان الأنصار) ومتداولاً بين أيدي الرواة ، إلاّ أنّه لم يسلم من هذا المجموع إلاّ ديوان حسّان الذي يسعف في تشكيل رؤية عن جانب من الغزل في عصر الرسالة والإسلام .

وعلى الرغم من أن غزل حسّان الجاهلي والإسلامي ظل محدود الإقامة في مقدمات قصائده ، إلاّ أن تبايناً نوعياً وكمياً وكيفياً يجده الباحث بين المرحلتين ، إذ يكشف الاستقراء لشعره الجاهلي عن ثماني صور من المقدّمات ، كان الغزل قاراً في خمس منها ، منفرداً تارة في مقدمة غزلية ، ومختلطاً متداخلاً بالمقدمة الطللية والظعنية والوصفية والارتحالية تارة أخرى(١) .

وقد جسّد حسّان في هذه المقدمات صوراً مشهدية لجمال المرأة الحسي والمعنوي ، ورسم لوحات نفسية بالتداعي والاسترجاع لذكرياته معها وأحاسيسه بها ، وما يتعلّق بذلك من سهر ووجد وحنين ، وتكاد هذه الصور والمعاني تمثّل عنصراً سائداً وثابتاً في مطالع قصائده ومقدماتها(٢) .

وتقلّص غزل حسّان في مقدّمات قصائده الإسلامية ، فغدا محصوراً في لونين هما : المقدمة الغزلية المنفردة ، والمقدمة الطللية الغزلية ، فضلاً عن المقدّمة الطللية(٣) . وقد تراجع طول هذه

---

(١) انظر مقدمة القصيدة الجاهلية عند حسان بن ثابت رضي الله عنه ، د . محمود أبوالخير ، مجلة جامعة أم القرى ج١٣ ، عدد رمضان ١٤٢١هـ : ص١١٤٠-١١٧٣ .

(٢) المرجع السابق : ص١١٨٢ .

(٣) مقدمة القصيدة الإسلامية عند حسّان بن ثابت ، د . محمود أبوالخير : ص٢٠-٣١ : وحسّان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ ، د . سيد حنفي : ص١٦٦ .

المقدّمات إلى بيتين وثلاثة وأربعة لكنها لا تجاوز أبياتاً سبعة ، بعد أن كان متوسطها التقريبي في المقدّمات الجاهلية أبياتاً عشرة[1] . وغدت مدخلاً سريعاً للأغراض الجديدة المركوزة في محور الدعوة ، تصويراً لمعارك المسلمين وأيامهم ، ونقضاً لشعر المشركين ، ، وهجاءً لهم . وفي هذا عدول ظاهر عن المقدّمات الجاهلية بفهم إسلامي . ومن أمثلة ذلك قوله[2] :

زَادَتْ هُمُومِي فَمَاءُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ ... سَحّاً إذا غَرَّقَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ

وجداً بِشَعْثَاءَ إذ شَعْثَاءُ بَهْكَنَةٌ ... هَيْفَاءُ لا دَنَسٌ فِيهَا و لا خَوَرُ

دَعْ عَنْكَ شَعْثَاءَ إذ كَانَتْ مَوَدَّتُها ... نَزْراً وَشَرُّ وِصالِ الواصِلِ النَّزَرُ

وأْتِ الرَّسولَ فَقُلْ يا خَيْرَ مُؤْتَمَنٍ ... لِلْمُؤْمِنِينَ إذا ما عُدِّلَ البَشَرُ

ولم يتبق لكعب بن مالك من شعره في الغزل إلا أبيات معدودة ، معزولة عن سياقها في القصائد ، ولا دليل على انتمائها الزمني[3] ، غير أنها دالة على نفس شعري مميز في لف الغزل بالعفة والحماسة ، من ذلك قوله[4] :

فَلاَ وأَبِيْكَ الخَيْرَ ما بَيْنَ واسطٍ ... إلى رُكْنِ سَلْعٍ مِنْ عَوانٍ ولا بِكْرِ

أَحَبُّ إلى كَعْبٍ حَدِيثاً وَمَجْلِساً ... مِنْ اُخْتِ بَني النَّجَّارِ ، لو أَنَّها تَدْرِي

وقوله[5] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الوُدَّ لَيْسَ بِنافِعِي ... لَدَيْهِ ، ولا راثٍ لِحَالَةِ مُوجَعِ

زَجَرْتُ الهَوى ، إنِّي امرؤٌ لا يَقُودُنِي ... هوايَ ، ولاَ رأيٌ إلى غَيْرِ مَطْمَعِ

---

(١) مقدمة القصيدة الإسلامية غند حسّان بن ثابت ، د . محمود أبوالخير : ص٢٠-٣١ ، وحسّان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ ، د . سيد حنفي : ص١٦٦ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د . سيد حنفي ، ط دار المعارف - القاهرة ، ص٢٠٦ .

- سح الدمع : سال واشتد انصبابه ، عبرة درر : كثيرة السيلان ، بهكنة : عظيمة الخلق ، يريد أنها نقية الحسب ، الخور من النساء : الكثيرات الريب لفسادهن وضعف أحلامهن ، النزر : القليل التافه . (لسان العرب ، مادة : سح ، ودر ، خور ، نزر) .

(٣) كعب بن مالك الأنصاري د . محمد علي الهاشمي - دار البشائر الإسلامية - ١٩٨٥ ، ص٢٩٧ .

(٤) ديوان كعب بن مالك الأنصاري - دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، ط بغداد ١٩٦٦ ، ص٢١٤ .

(٥) المصدر السابق : ص ٢٣١ .

وليس في ديوان ابن رواحة المجموع غزل ، وإن كان فيه غزل فني جاء في مقدمة بعض نقائضه الجاهلية التي يرد فيها على قيس بن الخطيم بقوله :(١)

تَذَكَّــرَ بَعْــدَمَــا شَطَّتْ نُجــودا ... وَكَــانَتْ تَيَّــمَتْ قَلْبِي وَلِيْــداً
كَــذِي داءٍ يُرَى في النَّاسِ يَمْــشِي ... وَيَكْتُمُ داءَهُ زَمَناً عَــمِــيْــدا
تَصَيَّــدُ عَــوْرَةَ الفِــتْــيانِ حَتَّى ... تَصِــيْــدَهُمُ وَتَشْنَأُ أَنْ تَصِــيْــدا
فَــقَــدْ صَــادَتْ فُــؤَادَكَ يَوْمَ أَبْدَتْ ... أَسِــيــلاً خَــدُّها صَلْتاً وَجِــيْــداً
تُزَيِّنُ مَــعْــقِــدَ اللَّبــاتِ مِنْهــا ... شُنُوفٌ في القَــلائِدِ والفَــرِيْدا
فَــإِنْ تَضْنُنْ عَلَيْكَ بِمَــا لَدَيْهــا ... وَتَقْلِبْ وَصْلَ نائِلِهَــا جَــدِيدا
لَعَــمْــرُكَ مَــا يُوافِــقُنِي خَلِيْلٌ ... إذا مَــا كَــانَ ذا خُلْفٍ كَنُودا

ومن غزل أبي قيس بن الأسلت(٢) :

تَمْشِي الهُوَيْنَى إذا مَشَتْ قُطُفــا ... كَأَنَّهــا عُــوْدُ بانَــةٍ قَصِفُ

ومن شعره في امرأة خَفِرة شريفة الذي فُضّلَ على قول الأعشى وذي الرمة(٣) :

وَيُكْرِمُهــا جَــاراتُها فَــيَــزُرْنَهــا ... وَتَعْــتَلُّ عن إتْيــانِهِنَّ فَــتُــعْــذَر
وَلَيْسَ لَهَــا أَنْ تَسْــتَــهِــيْنَ بِجَــارَةٍ ... وَلكِنَّهــا مِنْهُنَّ تَحْــيَــا وَتَخْــفَــرُ

وثانيها : إباحة الغناء بالغزل والاستمتاع به ، إذا كان في مناسبة الفرح والزفاف ، جماعياً في أدائه ، وعفاً في معناه ، شريفاً في نظمه . ففي السردية إشارة إلى عطف على الجارية اليتيمة بأن تستمتع بما عرف عن الأنصار من ميل للهو والطرب ، واستحكم في

---

(١) ديوان عبدالله بن رواحة ، تحقيق د . وليد قصاب ، ط دار العلوم - الرياض ، ١٩٨٢ ، ص١١٧-١١٨ .
- شطت : بعدت ، نجود ، اسم امرأة ، تصيد : تتصيد ، عورة الفتيان : ضعفهم ، تشنأ : تكره ، الخد الأسيل : الأملس الطويل ، الصلت : الجبين الواضح الأبيض ، معقد اللبات : العنق ، واللبات : جمع لبة ، وهي وسط الصدر والمنحر ، الكنود : الجحود .

(٢) الكامل للمبرد : ٢٨٩/٢ .

(٣) الأغاني : ١٢٩/١٧-١٣٠ .

طباعهم من غزل ، قصداً إلى ترسيخ الفرح ، ورفع الحرج عن مثل هذه المناسبات في إظهار الغزل وإشهار الغناء به بالدف لقوله : «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني» أو «هلا بعثتم معهم من يغنيهم . .» .

وثالثها : طرح نموذج تصوري لما يكون به الإمتاع بالغزل ، ولا ندري إذا كان هذا النموذج بدهياً ، أو محفوظاً في الذاكرة ثم تسرب منها ، إذ إنه شعر منظوم على وزن الهزج إذا أخذ برواية ابن القيم (ولولا الذهب . . . ولولا الحبة السمراء) ، لكنه مختل الوزن في بعض روايات الحديث (لولا الذهب . . . لولا الحنطة السمرا) ، وهو اختلال مناسب وما ذهب إليه أهل العلم من أن الرسول ﷺ كان يكسر وزن الشعر المتمثل به ، وفاقاً لقوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ ، على أنه لا يمنع أن تكون رواية الشعر تامة الوزن بالهزج فيما ضربه الرسول ﷺ نموذجاً تعليمياً ، لأنه جاء بدهياً من غير قصد إلى الشعر ، فوافق وزنه كما هو الحال في قوله ﷺ الذي جاء بوزن الرجز :

أَنَـــا النَّبِيُّ لا كَـــذِبْ   أنـا ابنُ عَـبْـدِ المُطَّلِبْ[1]

ورابعها : مراعاة الحال (إهداء الجارية إلى بيتها) ، وما يعتلج فيه من مشاعر نفسية في الميل نحو الآخر ، سواءٌ أكانت ظاهرة أم خفية ، والتنفيس عنها بمقتضى مناسب من التعبير ، وبمعنى آخر ، إن الغزل في هذا الحال يأتي تمكيناً لمنطلق تأسيسي ، وهو المودة في الصلات الزوجية ، إذ إنها واقع في الزواج ، فجاء التعبير عنها بخصوصية مناسبة (الغزل) ، فكان أدبياً بليغاً .

ومن التعريض بكراهة الغزل ما أخرجه البخاري بسنده عن الهيثم بن أبي سنان أنه سمع أبا هريرة يقول في قصصه يذكر النبي ﷺ يقول : «إن أخاً لكم لا يقول الرفث - يعني بذلك عبد الله بن رواحة قال :

وفينـــا رسول اللـه يتلو كتابـه   إذا انشق معروف من الفجر ساطع

. . . . الأبيات[2]

---

(١) انظر تفصيل ذلك في الفصل الأول (الرسول ﷺ ورواية الشعر) ، من كتابي نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده : ص١٩ - ٤٤ .

(٢) انظر صحيح البخاري : ٣٩/٣ ، ٥٤٦/١٠ .

والرواية الثانية عن الهيثم بن أبي سنان أيضاً «أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه – وهو يقص في قصصه – وهو يذكر رسول الله ﷺ : إن أخا لكم لا يقول الرفث» يعني عبد الله ابن رواحة . قال ابن حجر : «ورواية الزبيدي هذه المعلقة ، وصلها البخاري في التاريخ الصغير والطبراني في الكبير أيضاً من طريق عبد الله بن سالم الحمصي عنه ولفظه : إن أبا هريرة كان يقول في قصصه : إن أخا لكم كان يقول شعراً ليس بالرفث» وهو عبد الله بن رواحة فذكر الأبيات .

ويرى ابن حجر أن الصفة التي خلعت على شعر ابن رواحة رضي الله عنه بمجانبة الفحش هي من قول أبي هريرة ، ذلك أن قوله : «يقص في قصصه» أي مواعظه التي كان يذكر أصحابه بها ، أما قوله : «وهو يذكر رسول الله ﷺ إن أخاً لكم» فمعناه كما يقول ابن حجر : «استطرد إلى حكاية ما قيل في وصفه فذكر كلام عبد الله بن رواحة بما وصف به هذه الأبيات»(١) .

قال ابن بطال إن قوله ﷺ : «إن أخاً لكم لا يقول الرفث ليس في سياق الحديث ما يفصح بأن ذلك من قوله ﷺ بل هو ظاهر في أنه من كلام أبي هريرة»(٢) .

وبين الحديث الأول : «إن الأنصار قوم فيهم غزل» والحديث الثاني«إن أخا لكم لا يقول الرفث» اتصالية ظاهرة ، وعلاقة خفية متوارية ، فالأنصار هم مسلمو الأوس والخزرج ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنصاري خزرجي ، فهو واحدهم ، غير أنه مميز بينهم في خصوص قربه من الرسول ﷺ ، ودفاعه عنه ، وهجائه لأعدائه ، والغزل منحى عام في اللهو أو في حديث الفتيان للفتيات ، أو إخباره عنهن ، وبثه الأشواق إليهن ، والرفث قسيم ذلك ولون منه .

وسردية الحديث الثاني تجعل الرفث (القبح والباطل والفحش) مصروفاً عن شعر عبدالله بن رواحة عموماً والغزل خصوصاً ، يدل على ذلك رواية البخاري في التاريخ الصغير والطبراني في الكبير من طريق عبد الله بن سالم الحمصي عنه ، ولفظه «إن أبا هريرة كان

---

(١) فتح الباري : ٤١/٣ .

(٢) فتح الباري : ٤٢/٣ .

يقول في قصصه : «إن أخاً لكم كان يقول شعراً ليس بالرفث» ، ومعنى ذلك : أن هذه الشارة المميزة لابن رواحة محمولة على أن شعره حسن محمود ، لمجانبته الفحش والقبح في الغزل ، قال ابن بطال في تفسير الحديث : «إن قوله ﷺ : «إن أخا لكم لا يقول الرفث» فيه أن حسن الشعر محمود كحسن الكلام»[1] ، إذ إن الرفث مخصوص بالحديث إلى النساء وخطابهن .

ومعنى ما سبق : أن الحديث النبوي الشريف يلتمس لإباحة الغزل أساساً موضوعياً وآخر فنياً بمرجعية نفسية ، إذ شرط له مجافاة الفحش ، والنجاة من القبح ، وموافقة الميل الجمالي لما استقر في النفس البشرية من جاذبية في التعبير عنه ، والبوح به ، ولا تثريب في ذلك إن كان موقعاً بوزن ، مطرباً في الأداء ، بعيداً عن الإهاجة والإثارة ، مناسباً للرؤية الكونية للحال الإنساني والواقع الإسلامي في إقامة صلات وعلائق شرعية في المودة الزوجية .

ويبقى بعد ذلك الحديث المشهور : «من عشق فعف فكتم فهو شهيد» متردداً بين الرفض ؛ لأن في إسناده ضعفاً وفي متنه وضعاً ، ولصحة معناه قبولاً بالتوجيه ، على الرغم من تداول الباحثين القدماء والمحدثين له دليلاً على إباحة الغزل العذري ، وشاهداً على قوامة منحاه في تأثره بالإسلام .

قال أبوبكر بن داود الظاهري تحت باب «من كان ظريفاً فليكن عفيفاً » : «وحدثني أبي قال : حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني قال : حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من عشق فعف فكتمه فمات فهو شهيد»[2] .

وأتى ابن حزم على ذكر الحديث في باب الموت على أنه أثر فقال : «وربما تزايد الأمر ، ورق الطبع وعظم الإشفاق ، فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء في الآثار : من عشق فعف فمات فهو شهيد»[3] . ولعل الذي حمل ابن حزم على ذكره في هذا الباب

---

(١) فتح الباري : ٤٢/٣ .

(٢) الزهرة ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي ، ط مكتبة المنار ، الزرقاء ، ١٩٨٥ : ١١٧/١ .

(٣) طوق الحمامة ، تحقيق د . الطاهر أحمد مكي ، ط دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ : ص١٥٢ .

دون باب فضل التعفف[1]، أنه عدّه من الآثار التي لا يعول عليها كثيراً في الأحكام الشرعية إلا من جهة الاستئناس[2].

والحديث مروي من طرق عدة تتبع أكثرها ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ) وهي كما يلي:

- **الطريق الأول**: قال سويد بن سعيد الحدثاني، حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه قال: «من عشق فكتم وعف وصبر فمات فهو شهيد»[3].

- **الطريق الثاني**: أخرجه الخطيب البغدادي، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب، إملاء منه، حدّثنا أبوعبدالله المرزباني وابن حَيُّويه وابن شاذان، قالوا: حدثنا أبوعبد الله ابن محمد بن عرفة نفطويه ... قال حدثني محمد بن داود الأصفهاني قال: حدثني أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد، عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة»[4].

- **الطريق الثالث**: أخرجه أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج (ت٥٠٠هـ) قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بدمشق قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسين بن أيوب القُمّي إملاءً قال: حدثنا أبو عبد الله المرزباني وأبو عمرو بن حيويه وأبوبكر بن شاذان قالوا: حدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي الملقب بنفطويه فذكره ..[5].

- **الطريق الرابع**: أخرجه الخطيب البغدادي أيضاً قال: حدثنا الأزهري، حدثنا المعافى بن زكريا، حدثنا قطبة بن الفضل بن إبراهيم الأنصاري، حدثنا أحمد بن

---

(١) انظر طوق الحمامة: ص١٨٤ - ١٩٤.

(٢) من الذين عولوا على الحديث في شرعية الحب من الباحثين المُحْدَثين، الدكتور شكري فيصل في كتابه تطور الغزل، انظر ص ١٨٨-١٩٦.

(٣) روضة المحبين: ص١٧٨-١٧٩.

(٤) روضة المحبين: ص١٧٩.

(٥) مصارع العشاق: ١/١٤-١٥.

مسروق ، حدثنا سويد ، حدثنا ابن مُسْهر ، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً [(١)] .

- **الطريق الخامس** : ما رواه الزبير بن بكار عن عبدالملك بن عبد العزيز الماجشون ، عن عبدالعزيز بن أبي حازم ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ به . ولفظه : «من عشق فعف فمات فهو شهيد»[(٢)] .

- **الطريق السادس** : رواه أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب ، قال : حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف عن الزبير فذكره . . . [(٣)] .

ويلاحظ أن الحديث مروي عن غير طريق سويد بروايتين ، فخرج سويد عن عهدة التفرد به ، على أنه لو تفرد به فهو ثقة ، احتج به مسلم في صحيحه ، وقال : ثقة ثقة ، وقال أبو حاتم الرازي ويعقوب بن شيبة : هو صدوق ، وأكثر ما عيب به التدليس ، وقد صرح هاهنا بالتحديث ، وعيب بأنه ذهب بصره في آخر عمره ، فربما أدخل عليه هذا الحديث في كتبه ، ولكن رواية الأكابر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره ، لأنه إنما عمي في آخر عمره ، وليس هذا بقادح في حديثه[(٤)] .

وقد أخرج ابن حبان الحديث في المجروحين[(٥)] والدارقطني في تعليقاته على المجروحين أيضاً[(٦)] .

ورد ابن قيم الجوزية الحديث دراية ورواية ، إذ قال : «وهذا حديث باطل على رسول الله ﷺ قطعاً ، لا يشبه كلامه ، وقد صح عنه أنه عدّ الشهداء ستاً ، فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ، ولا

---

(١) روضة المحبين : ص١٧٩ .

(٢) روضة المحبين : ص١٧٩ .

(٣) روضة المحبين : ص١٧٩ .

(٤) روضة المحبين : ص١٨٠ .

(٥) المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين : ٣٥٢/١ .

(٦) انظر التعليقات على المجروحين : ص١١٩ -١٢٢ .

يمكن أن يكون كل قتيل العشق شهيداً ، فإنه قد يعشق عشقاً يستحق عليه العقوبة .

وقد أنكر حفاظ الإسلام هذا الحديث على سويد ، وقد تكلم الناس فيه ، فقال ابن المديني : ليس بشيء ، والضرير إذا كان عنده كتب فهو عيب شديد ، وقال يعقوب بن شيبة : صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعد ما عمي ، وقال البخاري : كان قد عمي فيلقن ما ليس من حديثه ، وقال أبوأحمد الجرجاني : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد ، وأنكره البيهقي وأبوالفضل بن ظاهر وأبو الفرج بن الجوزي وأدخله في كتابه الموضوعات .

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سويد عاتبه عليه ابن المرزبان فأسقط ذكر النبي ﷺ منه . وكان سويد إذا سئل عنه لا يرفعه ، وهذا أحسن أحواله أن يكون موقوفاً ، ولذلك رواه أبومحمد الحسين القاري من حديث أبي سعد البقال عن عكرمة عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها فلا يشك من شم رائحة الحديث أن هذا باطل على هشام عن أبيه عن عائشة ، ولا يحتمل هذا المتن مع هذا الإسناد بوجه .

والتحاكم في ذلك إلى أهل الحديث لا إلى العارين الغرباء منه ، والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغير إسناده ، وأما حديث الزبير بن بكار فمن رواية يعقوب بن عيسى ، وهو ضعيف لا تقوم به حجة ، قد ضعفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب»(١) .

واستوعب الألباني طرقاً أخر للحديث ، وقدم لها بأن الحديث موضوع ، ورأى في إسنادها ضعفاً بعلتين ، الأولى : ضعف أبي يحيى القتات ، والثانية : ضعف سويد بن سعيد ، ثم نقل أقوال الأئمة في ضعف الحديث كابن معين في الخلاصة وابن حجر في بذل الماعون وتلخيص الحبير والسخاوي في المقاصد الحسنة وابن الجوزي في الضعفاء ، وانتهى الألباني من ذلك كله إلى القول : «وخلاصة الكلام أن الحديث ضعيف الإسناد ، موضوع المتن كما جزم بذلك العلامة ابن القيم»(٢) .

ولأهل العلم توجيه للحديث على الرغم من ضعفه ، إذ إن في الحديث ، على اختلاف مرويات متنه ، ضوابط للعشق المباح الحلال ، وهي : العفة والكتمان والصبر ، فإذا احتسب

---

(١) روضة المحبين : ١٨٠-١٨١ وانظر زاد المعاد : ٣/٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : حديث رقم ٤٠٩ ١ ، ص٤٠٢-٤٠٨ .

العاشق أمر هذه الضوابط لله ، وآثر محبته له وخوفه منه ورضاه عنه ، فهو أحق من دخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾(٢) .

وذهب ابن تيمية إلى أن الحديث هو حديث أبي يحيى القتات ، وفي حديثه نظر ، ولكن معناه دل عليه الكتاب والسنة من حيث العفة والصبر ثم الكتمان ، حتى لا يحرك نفوس الآخرين ، فيشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، ثم يقول : «وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه ، فإذا ابتلي المسلم ببعض ذلك ، كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى ، وهو مأمور بهذا الجهاد . . . فتكون المجاهدة في طاعة الله ورسوله»(٣) .

وتعلق السيوطي بالحديث دليلاً على الإباحة من حيث إن العلماء نصوا على أن الميت عشقاً معدود من الشهداء كالمبطون والمطعون والغريق ونحوهم ، احتجاجاً بما رواه الدارقطني في جزئه من حديث ابن عباس السابق «من عَشِقَ فعفَّ فكتم فمات فهو شهيد» ، وإن كان الحديث فيه ضعف ، إذ «هلك كثير من المتيمين في عشق من أحبوه صبراً على الوصال ، أو تقديماً للمروءة على الشهوة»(٤) .

وأياً كان نصيب الحديث من الصحة في إسناده أو معناه ، فإنه غير مؤتلف وشعر العذريين ، الذين قد نجد في شعرهم عفة ولكنها غير خالصة من مجون أو غزل بالمفاتن ، ونصادف فيه حديثاً عن الصبر على الهجر والبين والصد ، ولكنه صبر غير جميل ، إذ إنه كثير الشكوى وإظهار الألم والمعاناة ، أما الكتمان فلا سبيل له في شعرهم ، لأن الإذاعة والتشهير بالمرأة عنصر أساس فيه .

* * * *

ولا غرو أن تكون مجالس الصحابة رضي الله عنهم امتداداً لمجالس الرسول ﷺ في

(١) سورة النازعات آية : ٤٠ ،٤١ .

(٢) سورة الرحمن آية : ٤٦ .

(٣) انظر دقائق التفسير : ٢/١٠٨-١٠٩

(٤) انظر كنه المراد في شرح بانت سعاد : ص١٣٦ .

مجانبة تناشد أشعار الغزل الفاحش ، الذي يقص سعي الرجل إلى المرأة ودبيبه إليها ، ويسف في التكشف والتبذل في تصوير ما يجري بينهما من مواقعة الزنا أو مقدماته حدثاً وحديثاً ، على الرغم من أن فقه إنشاد الشعر يجعل مثل هذا الموقف بمنجاة عن الإثم ومقارفته ؛ لأن المنشد أو الراوي حاك وليس قائلاً . فالأخذ بالعزم أساس في هذه المجالس الأدبية ، يعزز ذلك ما رواه البخاري عن فقههم للإنشاد ، «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين ، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»(١) .

وإذا وعينا ما سبق من هذا الموقف ، فإن ما يروى عن مجلس عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، واستنشاده رائية عمر بن أبي ربيعة خلال مسائل نافع بن الأزرق ، يظل متأبياً على القبول ، إلا أن نجد له تفسيراً وتوفيقاً .

فقد روى المبرد (ت٢٨٦ هـ) الخبر ممرضاً بقوله : «ويروى من غير وجه أن ابن الأزرق أتى ابن عباس يوماً فجعل يسأله حتى أملّه ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر ، وطلع عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة على ابن عباس ، وهو يومئذٍ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غَداةَ غَدٍ أَمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ

.... الأبيات

حتى أتمّها ، وهي ثمانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرق : لله أنت يا ابن عباس! أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً تسمعه ، فقال : تالله ما سمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَخْزَى وَأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْسَرُ؟

فقال : ما هكذا قال : إنما قال : «فيضحي وأمّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ» .

---

(١) الأدب المفرد : ص٨١ والفائق للزمخشري : ٢٧٥/١ ، انظر تفصيل موقف الصحابة والتابعين من رواية الشعر في الفصل الثالث (الإمتاع الأدبي) من الباب الثالث ص٢١٣-٢٤٢ من كتابي : نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده .

قال : أو تحفظ الذي قال؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فارددها ، فأنشده إياها كلها»[1] .

وتلقى أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦ هـ) الخبر السابق فصنع له سنداً وروى أحداثه بلفظ مختلف ، وزيادة في متنه ، فأما السند فكان تاماً في سلسلة رجاله ، وهو على النحو التالي : «أخبرني الجوهري والمهلبي قالا : حدثنا عمر بن شبة ، قال : حدثني هارون بن عبدالله الزهري قال : حدثنا ابن أبي ثابت ، وحدثني به علي بن صالح بن الهيثم عن أبي هفّان عن إسحاق عن المُسَيَّبي والزبيري والمدائني ومحمد بن سلام قالوا : قال أيوب بن سيار ، وأخبرني به الحرمي بن أبي العلاء ، قال حدثنا الزبير بن بكار ، قال حدثني محمد ابن الحسن المخزومي عن عبد العزيز بن عمران عن أيوب بن سيار عن عمر الركاء ، قال : بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة . . . .»[2] .

وعلى الرغم من هذه السلسلة المتتالية في سند الرجال ، إلا أن فيها عدداً ممن لا يوثق بروايته ؛ لأنه متروك أو كذاب ، أو منكر الحديث أو ضعيفه[3] .

وأما الزيادة في متن الخبر فهي في قوله : «وفي رواية عمر بن شبة : أن ابن عباس أنشدها من أولها إلى آخرها ، ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحاً ، قال : وهذا غاية الذكاء ، فقال له بعضهم : ما رأيت أذكى منك قط ، فقال : لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام . وكان ابن عباس يقول : ما سمعت شيئاً قط إلا رويته ، وإني لأسمع صوت النائحة فأسدّ أذني كراهة أن أحفظ ما تقول . قال : ولامه بعض أصحابه في حفظ هذه القصيدة : «أمن آل نعم . . .» فقال : «إنا نستجيدها» . وقال الزبير في خبره عن عمه : فكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحدث هذا المغيريُّ شيئاً بعدنا ؟»[4] .

---

(١) الكامل في اللغة والأدب : ٣/٢٢٨-٢٢٩ .

(٢) الأغاني : ١/٧١-٧٢ .

(٣) انظر تخريج هذا السند في كتاب نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده : ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٤) الأغاني : ١/٧٢-٧٣ .

تجدر الإشارة إلى أن هذا الخبر ساقه الرواة للدلالة على صحّة مسائل ابن الأزرق التي طرحها على ابن عباس ، والأمر منقوض في ذلك رواية ودراية ، أو سنداً ومتناً(١) .

والباحث معنيٌّ في هذه الرواية هنا باستنشاد عبد الله بن عباس لعمر بن أبي ربيعة ، واستماعه واستمتاعه بالرائية :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غـادٍ فَـمُـبْكِـرُ   غَـداةَ غَـدٍ أم رائحٌ فَـمُـهَـجِّـرُ

واستجادته لها واستحسانه لروايتها ، وتباين الحكم النقدي على الرائية بين نافع بن الأزرق وابن عباس ، وما ذيلت به الرواية من الموازنة بين ذكاء ابن عباس وذكاء علي بن أبي طالب .

فهذه المروية تكشف عن صورة من مجالس ابن عباس الفقهية الأدبية في حرم الله ، وبمعنى آخر : تبين مكانة الشعر في تفسير ابن عباس ، إذ الخبر مروي للدلالة على اتخاذ ابن عباس الشعر شاهداً في تفسير كتاب الله ، وهو عند التحقيق ليس صحيحاً ، إذ نحلت أكثر مسائل ابن الأزرق لهذه الغاية(٢) .

ويبدو ابن عباس في استماعه لرائية عمر بن أبي ربيعة غير متأثم في ذلك ، ولا يرى بأساً أو حرجاً في سماعها ، حيث يقص عمر سعيه فيها إلى نُعْم ، ويخبر عما جرى بينهما في تلك الليلة من المجون في قوله(٣) :

... وَلَيْلَةِ ذي دَوْرانَ جَشَّمَنِي السُّرَى   وقـد يَجْشَمُ الهَوْلَ المُحِبُّ المُغَرَّرُ
... فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ   مَصَابِيْحُ شُبَّتْ بالعِشَاءِ وأَنْوُرُ
وغابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أرجو غُيُوبَهُ   وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ ، ونَوَّمَ سُمَّرُ
... فَحَيَّيْتُ إذْ فاجَأْتُها ، فَتَوَلَّهَتْ   وكـادَتْ بِمَخْفوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَقَالَتْ وعَضَّتْ بِالبَنَانِ فَضَحْتَنِي   وَأَنْتَ امرؤٌ مَيْسُورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ

---

(١) انظر ذلك في كتاب نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده : ص١٨٧-٢٠٨ .

(٢) نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده : ص١٨٦-١٩٠ .

(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٩٥-١٠١ .

... فَبِتُّ قَرِيْرَ العَيْنِ ، أُعْطِيْتُ حاجَتي أُقَــبِّلُ فَــاهَا في الخَــلاءِ فَــأُكْــثِــرُ
فَـيَــالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَــاصَــرَ طُولُهُ ومــا كــانَ لَيْلِي قَــبْلَ ذَلِكَ يَقْــصُــرُ
وَيَا لَكَ مِنْ مَلْهى هُنَاكَ ومَـــجْلِسٍ لَـنَـا لَـمْ يُـكَـدِّرْهُ عَـلَـيْـنـا مُـكَـدِّرُ
يَمُجُّ ذَكِيَّ المِـسْكِ مِنْهــا مُـقَـبَّلٌ نَقِيُّ الثَّنَايا ذُو غُــروبٍ مُــؤَشَّــرُ
تَراهُ إذا مــا افْــتُــرَّ عَنْهُ كَــأَنَّهُ حَـصَـى بَرَدٍ أو أُقــحُــوانٌ مُنَوَّرُ
وَتَرْنُو بِعَــيْنَيْــهــا إليَّ كَــمَــا رَنَا إلى ظَبْــيــةٍ وَسْطَ الخَـمِـيْلَةِ جُـؤْذَرُ
فَلَمَّــــا تَقَــــضَّى الليلُ إلاّ أَقَلَّهُ وَكَــادَتْ تَوَالي نَجْـمِــهِ تَتَــغَــوَّرُ
أَشَــارَتْ بِأَنَّ الحَيَّ قَــدْ حَــانَ مِنْهُمُ هُبُــوبٌ ، ولكِنْ مَــوْعِــدٌ مِنْكَ عَـزْوَرُ
... هَنِيْـئـاً لأَهْلِ العَـامِـرِيَّةِ نَشْـرُها الـ لَـذيـذِ وَرَيَّـاهـا الـتـي أَتَـذَكَّـــــــرُ

فابن عباس رضي الله عنه في هذا الموقف - إن صح ولا أظنه صحيحاً - متجاف عن صفة مجالس رسول الله ﷺ في حديث ابن أبي هالة : «إن مجلسه مجلس حلم وحياء .. لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَم» ، ومتسامح في الأخذ بالنهي الذي جاء في الحديث : «إنما نهى عن الشعر إذا أتيت فيه النساء» أو «إذا أبنت فيه النساء» ، وهو متقارب مع فقه حديث أبي هريرة الذي يأخذ به أهل الإجازة في الترويح والإمتاع بالشعر ، إذ سأله العجاج ما تقول في هذا :

طَافَ الخَـيَـالانِ فَـهَـاجـا سَـقَـمَـا خَـيَـالُ سَلْمَى وَخَـيَـالُ تَكْتُـمَـا
قَـامَتْ تُرِيْكَ رَهْبَـةً أَنْ تَصْـرِمَـــا سَـاقـا بِخِنْداةٍ وَكَـعْـبـاً أَدْرَمـا

فقال أبو هريرة : «كنا ننشد هذا على زمن رسول الله ﷺ فلا يعيبه»(١) .

ولعلَّ ابن عباس لم يجاوز اللمم في رؤيته لما أصابه عمر بن أبي ربيعة في لهوه ليلة ذات دوران ، أو أنه علق الأمر بالخيال دون الواقع ، وبالمطلق العام من النساء دون المعين الخاص ، فغلبت النظرة الفنية عنده الرؤية الخلقية ، ودليل ذلك قوله حين لامه بعض

(١) مجمع الزوائد : ١٣٠/٨ ، قال الهيثمي : رواه الطبراني عن شيخه رفيع بن سلمة ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

أصحابه في حفظ هذه القصيدة : «إنا نستجيدها» . غير أنَّ مثل هذا الموقف الذي يفصل بين الدين والفن ، لا نكاد نجد له ظلاً في الحياة الأدبية في عهد الرسالة والصحابة ، وإن وجدناه ظاهراً في عهد التابعين في مجالس سعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين وعبدالله ابن أبي عتيق ، فيما ترويه عنهم كتب الأدب وأخباره ، وهي لا تصفو من غير شائبة في أسانيدها المفقودة أو المقطوعة .

ومما ينازع في قبول هذه المروية عن ابن عباس أنه كان يميل إلى تفضيل التسامي في التعبير الأدبي بالمعاريض ، وإلى تهذيب الأساليب بالكنى عما يفحش ذكره ، فقد روي عنه أنه قال : «ما أحب بمعاريض الكلام حمر النعم»(١) ، وقوله في تفسير قول الله تعالى : ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ «المس واللمس والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يعف ويكني ما شاء بما شاء»(٢) . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ قال ابن عباس : «الرفث : الجماع ؛ لأن الله عز وجل كريم يكني»(٣) .

وتبوح هذه المروية عن ابن عباس بمقاصد مذهبية لم تغب عن ذهنية الواضعين لها ، فغير بعيد عن هذا الحوار بين نافع بن الأزرق وابن عباس ، الإبانة عن شدة رؤية الخوارج ، وتساهل رؤية أهل السنة في هذه المسألة ، الذي يؤول في أمره إلى مذهب الإحسان في رواية الشعر الفاسد بإسقاطه أو تغيير ما قبح من ألفاظه ، وهو أرفع منزلة من مذهب الإجازة العام ، فابن الأزرق (في رواية المبرد) يقول : « لله أنت يا ابن عباس ! أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه» . ويقول ابن عباس : «تالله ما سمعت سفهاً» . فابن الأزرق معرض عن السفاهة ، وابن عباس مرتكس في سماعها ، ثم إن نافعاً يضطره التمثيل بالشاهد الشعري فيغير في روايته أخذاً بالإحسان مذهباً ، في حين لا يتنبه ابن عباس لذلك ، إذ يقول نافع : «ويأتيك غلام من مترفي قريش فينشدك» :

رَأَتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشَّمْسُ عَارَضَتْ   فيخزى وأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْسَرُ(٤)

---

(١) اللسان : مادة عرض ٩/٤٥ .

(٢) جامع البيان للطبري : ٥/٦٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ج٢/٣١٥ .

(٤) الأغاني : ١/٧٢ .

وغير بعيد عن هذه المروية أيضاً مذهبية التشيع في الممايزة بين ابن عباس رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، في تذييل الرواية بالقول : «ما رأيت أذكى منك قط ، فقال : لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام»(١) .

ولا تبتعد الرؤية الرسمية للصحابة رضي الله عنهم من الخلفاء وأمراء المؤمنين عن المذهب الإسلامي في الغزل وشعرائه ، إذ ألزم الشارع من يتحمل تبعة عامة أو تبعة خاصة من شؤون المسلمين أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وجعل له حق الاجتهاد فيهما ، بأن أجاز له بذل الوسع في فهمهما واستنباط الأحكام منهما ، فقد روي أن الرسول ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال له : «بم تحكم؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي ، قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله»(٢) . وقد جعل للحاكم أجراً إذا أخطأ بالاجتهاد ، مشجعاً له للاجتهاد في فقه النصوص ، فقد روى البخاري عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»(٣) . والشارع إذ يُلْزِم الحاكم ومن في حكمه بكتاب الله وسنة رسوله ، والاجتهاد في فقه نصوصهما ، نهاه عن أن يحكم بغير الإسلام ، أو أن يتطلع إلى غيره مطلقاً .

فقد اجتهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الغزل ، إذ رصد حداً لمن جاوز الأمر الإلهي في شأن المرأة ، فقد ذكر إبراهيم بن المنذر قال : «حدثنا محمد بن فضالة النحوي قال : «تقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشعراء ألا يشبب رجل بامرأة إلا جُلد»(٤) .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا ناظر إلى خصوص الدلالة وعمومها في بعض الآيات القرآنية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ

(١) الأغاني : ٧٣/١ .

(٢) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية : ج١٣/ ٣٦٤ .

(٣) الجامع الصحيح : حديث رقم ٧٣٥٢ ، والمسند الصحيح : حديث رقم ١٧١٦ .

(٤) الاستيعاب ، تحقيق محمد البجاوي ط نهضة مصر- القاهرة : ٣٧٨/١ وأسد الغابة : ٥٤/٢ .

(٥) سورة النور : آية رقم ٤-٥ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١)
وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٢) .

فالتشبيب بالنساء لون من ألوان قذف المحصنات وإيذاء المؤمنات ، فيه بهتان وإثم مبين ، يستحق الشاعر به الحد على ظاهر قوله القبيح وكذبه المختلق ، فضلاً عن الفاحشة التي يريد لها أن تسود ، والحد إنما يقام بإقرار أو بينة ، بمقتضى حكم الله الذي شرعه ، وليس على مقتضى صدق الإنسان فيما يقول ، روى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : «أيها الناس إن الوحي قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه ، وإن قال إن سريرته حسنة»(٣) ، ويقوي اجتهاد عمر في حد الشاعر المشبب بالمرأة أيضاً ما روي أنه رضي الله عنه قال لأبي بن كعب : «قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ الآية ، والله إني لأضربهم وأنهرهم ، فقال له أبي : يا أمير المؤمنين ، لست منهم ، إنما أنت معلم ومقوّم»(٤) .

وتوعد عمر بن الخطاب الشعراء ، وتهديده لهم بالحدّ ، لم يحمل إلا على وجه التقويم والتهذيب ؛ ليظل الشعر في دائرة القوامة التي أرادها الإسلام له ، ذلك أن الشعراء لا يتورعون عن الإقرار بالكذب الذي وصفهم به الله عز وجل ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ . فقد درأ الحد عن نفسه والي ميسان ، النعمان بن علي بن نَضْلة اعترافاً بقوله : «يا أمير المؤمنين ، ما فعلت شيئاً مما قلت ، وإنما كان فضلة من القول ، وقد قال تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ..... وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحدّ»(٥) . وقد درأ الفرزدق عن نفسه الحد أيضاً عند سليمان بن عبدالملك وقد سمع قوله :

فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الخِتَامِ

---

(١) سورة النور : آية رقم ١٩ .

(٢) سورة الأحزاب : آية رقم ٥٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٣/١١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٠/١٤ .

(٥) أحكام القرآن : ج١٤٢٧/٣ واللسان : مادة جذا ١٤٨/١٨ .

قال : قد وجب عليك الحد ، فقال الفرزدق : يا أمير المؤمنين ، قد درأ الله عني الحدّ بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(١) .

ولكن تلقي عمر بن الخطاب لقول سحيم عبد بني الحسحاس ، كان تهديداً شديداً ووعيداً أكيداً ، وذلك حين أنشده سحيم :

وَبَاتَ وِسَادَانَا إلى عَلَجَانَةٍ ... وَحِقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّيَاحُ تَهَادِيا
وَهَبَّتْ شَمَالُ آخِرَ اللَّيْلِ قَرَّةٌ ... ولا ثَوْبَ إلاَّ دِرْعُهَا ورِدائِيا
فما زالَ بُرْدِي طَيِّباً مِنْ ثِيابِهَا ... إلى الحَوْلِ حَتَّى أَنْهَجَ الثَّوْبُ بالِيا(٢)

وفي رواية أبي الفرج عن أبي خليفة عن محمد بن سلام أن سحيماً أنشد عمر :

تُوَسِّدُني كَفّاً وَتَثْنِي بِمِعْصَمٍ ... عَلَيَّ وَتَحْوِي رِجْلَها مِنْ وَرَائِيا

فقال عمر : ويلك ! إنك مقتول(٣) .

ومؤدى الشعر في الروايتين من الفحش بين ، غير أنه متدثر بالتوهم في الرواية الأولى ؛ لفرط العشق ، كما يقول ابن قتيبة(٤) ، وهو متكشف الأداء ، راصد للحركة والنقلة الدقيقة في الرواية الثانية ، ولهذا كان التعبير عن صدمة تلقي الفحش متوحد بالتهديد والوعيد قولاً «ويلك إنك مقتول» ، وكذلك كان إرهاص عمر كاشفاً ، فقد قتل سحيم بشعره الفاحش(٥) .

وإذا كان تهديد عمر رضي الله عنه حاد عن التنفيذ لواذاً بكذب الشعراء وخيالهم ، فإنه ناسب بين قول سحيم وما يستحقه من التقبيح والإنكار ، إذ إن «الويل» : الهلاك ، يدعى به لمن وقع في هلكة يستحقها ، وهو عذاب واسع المدى مترامي النهاية ، إذ إنه باب أو واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً ، لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره قبل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٣/١٤٨-١٤٩ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ١/١٨٨ .
(٣) الأغاني : ٢٢/٣٠٥ .
(٤) الشعر والشعراء : ص٢٤١ ط ليدن .
(٥) انظر الأغاني : ٢٢/٣٠٨-٣٠٩ .

أن تبلغ قعره ، كما قال رسول الله ﷺ ، على أن هذه الكلمة لفظ قبيح ، يجب لمن قبح فعله ، وساء عمله كما يقول سيبويه(١) .

ويبدو أن عمر بن الخطاب في موقفه من شعراء الغزل يمايز بين ما كان عاماً في تعلقه ، وخاصاً في دلالته على امرأة بعينها ، ففي حديثه رضي الله عنه ، أنه رفع إليه غلام ابتهر جارية في شعره(٢) ، فلم يوجد أنبت ، فدرأ عنه الحد(٣) .

وفقه عمر في هذا الباب من اعتراف الشعراء بما يوجب عليهم الحدّ ، وعيداً بالجلد ونظراً في إقامة الحد ، وتهديداً شديداً ، موافق في مرماه ومآله لمقاصد الشريعة التي جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها . على أن بين العلماء اختلافاً فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب عليه حداً ، هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، وهو على قولين :

«أحدهما : أنه يقام عليه لأنه أقر به ، والإقرار تثبت به الحدود . والثاني : أنه لا يحد بإقراره في الشعر ؛ لأن كذب الشاعر في شعره أمر معروف معتاد ، واقع لا نزاع فيه»(٤) .

وأظهر القولين أن الشاعر إذا أقر في شعره بما يستوجب الحد لا يقام عليه الحد ؛ لأن الله جل وعلا صرح هنا بكذبهم في شعرهم في قوله ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ . فهذه الآية تدرأ عنهم الحد ، ولكن الأضبط أنه إن أقر بذلك استوجب بإقراره الملام والتأديب ، وإن كان لا يحد به ، كما ذكر جماعة من أهل الأخبار في قصة عمر مع النعمان بن علي بن نضلة والي ميسان ، وما ذكره غير واحد من المؤرخين عن سليمان بن عبد الملك لما سمع الفرزدق . . . فلم يحده من إقراره بموجب الحد(٥) .

فالشاعر الذي يبتهر امرأة مسلمة ؛ أو يقذف محصنة غافلة هو من الفساق ، لأنه كاذب

---

(١) انظر لسان العرب : مادة ويل ٢٦٦/١٤ .

(٢) والابتهار : أن ترمي المرأة بنفسك وأنت كاذب - اللسان مادة بهر ١٥١/٥ .

(٣) لسان العرب : ١٥١/٥-١٥٢ والفائق للزمخشري ١٣٩/١٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٥٣/٣ .

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن للشنقيطي : ٣٩١/٦-٣٩٢ .

في خبره، فقد روى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال: هذه الآية لأمهات المؤمنين خاصة، وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال: هن نساء النبي ﷺ، وقال معمر الكلبي: إنما عنى بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال تعالى أو يتوب.

قال ابن تيمية: «ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف، فتكون اللام في قوله ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ لتعريف المعهود، والمعهود هنا: أزواج النبي ﷺ؛ لأن الكلام في قصة الإفك، ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة، أو يقصر اللفظ العام على سببه، للدليل الذي يوجب ذلك.

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعد على قذف محصنات غافلات مؤمنات، فقال في أول السورة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ الآية، فرتب الحدود والشهادة، والفسق على مجرد قذف المحصنات فلا بد أن يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات . . .»[1].

وفي حمى هذا الفهم: «من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق أو يتوب»، كانت متابعة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز لشعراء الغزل الصريح في زمانه، فقد ذكر الزبير بن بكار قال: «حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له همّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص، فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث، فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إليّ. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر؛ فقال: هيه!

فَلَمْ أَرَ كَالتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ نَاظِرٍ ... ولاَ كَلَيالي الحَجِّ أَفْلَتْنَ ذا هَوى

وَكَمْ مالِئٍ عَيْنَيْهِ مِنْ شَيْءِ غَيْرِهِ ... إذاَ رَاحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ البِيْضُ كالدُّمَى

---

(١) التفسير الكبير لابن تيمية ٢٩٦/٥ .

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون؟! ثم أمر بنفيه فقال : يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال : ما هو؟ قال : أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبداً ، وأجدد توبة . فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ، فعاهد الله على توبته وخلاه ، ثم دعا بالأحوص ، فقال : هيه!

اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيِّمِهَا يَفِرُّ مِنِّي بها وأَتَّبِعُ

بل : الله بين قيمها وبينك ، ثم أمر بنفيه ، فكلمه فيه رجال من الأنصار ، فأبى وقال: والله لا أرده ما كان لي سلطان ، فإنه فاسق مجاهر»(١) .

* * * *

وأقام الفقه الإسلامي للغزل مما سبق ذكره ضوابط نقلية وعقلية ، بدءاً من زمن التابعين ومروراً بالعصور اللاحقة ، وذلك إجابة عن الأسئلة التالية :

- ما الغاية من الغزل؟

- وبمن نتغزل؟ .

- وكيف نتغزل؟ .

- وهل ينتقص الغزل من تقوى المرء؟ .

فقد روي عن سعيد بن المسيب ، مفتي المدينة ، وسيد التابعين أنه قال لعبيد الله بن عبد الله بن عتبه بن مسعوذ أخي عبد الله بن مسعود : « أنت الفقيه الشاعر؟ فقال : لا بد للمصدور أن يَنْفُث»(٢) .

وإذا ضربنا صفحاً عن تعجب ابن المسيّب من جمع عبيدالله الشعر والفقه «أنت الفقيه الشاعر» ، إذ لا يتناسب ذلك وما يروى عنه من أخبار لم يكن متشدداً فيها من سماع

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٣/١٤٩-١٥٠ .

(٢) العقد الفريد : ٥/٢٨٤

الغزل وإنشاده[1] ، فإن مقولة عبيد الله : «لا بد للمصدور أن ينفث» ذات ارتباط وثيق بغاية الغزل النفسية في التنفيس عما يختلج في الصدر من أحاسيس ، وما يضطرب في القلب من مشاعر ، تخفق النفس في كتمانها ، ولا يقوى الخاطر على إخفائها . ذلك أن استحسان الحسن وتمكن الحب طبع كما يقول ابن حزم : «لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»[2] . وربما كان من أسباب الكشف والإعلان والإذاعة كما يقول ابن حزم أيضاً : «غلبة الحب وتسور الجهر على الحياء ، فلا يملك الإنسان حينئذ لِنَفْسِهِ صرفاً ولا عدلاً ، وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكمه على العقل»[3] .

ومثل هذا النفث ، إذا كان تعبيراً بالغزل ، ليس بملحق ذماً بزهد صاحبه ، ولا بمصيب ثلماً في قوامة منهجه ، ولا بمخل بدرجة إيمانه ، أو منقص في تمام إحسانه ، فقد دفع ابن حزم ذلك كله عن نفسه فيما صاغه من غزل تعبيراً عن تجاربه وتجارب غيره بقوله : « ولا تظن بكلمة خرجت من فيّ امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، فهذا أعزك الله أدب الله ، وأدب رسوله ﷺ ، وأدب أمير المؤمنين (عمر) . وبالجملة فإني لا أقول بالمراياة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها ، واجتنب المحارم

---

(١) انظر الأغاني : ١/١١٣-١١٤ وانظر زهر الآداب : ١/١٧٢ والكامل : ٢/٢٠٦

قال جامع بن مرخية الكلابي مبيناً موقف سعيد من الحب وأنه لا ملامة فيه لأنه لا إرادي :

سألت سعيد بن المسيب مفتي الـ ... مدينة هل في حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب : إنما ... تُلامُ على ما تستطيع من الأمر

فلما سمعها سعيد بن المسيب قال : «والله ما سألني أحد عن هذا ، ولو سألني ما كنت أجيب إلا به» .

(ربيع الأبرار : ٢/١٢٩) وروى القرطبي الخبر عن ابن شهاب قال : قلت له (لعبيدالله بن عبدالله ابن عتبة بن مسعود) تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ» (الجامع لأحكام القرآن : ١٣/١٤٨) .

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف : ص٦٠ .

(٣) طوق الحمامة : ص٦٤ .

المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعني مما سوى ذلك»[1] .

والنسك الأعجمي الرافض للشعر ، المتبرم بأغراضه عامة ، والكاره للغزل خاصة ، جاء وصفاً على لسان سعيد بن المسيب لفريق من أهل العراق[2] ، بأن تدينهم يعوزه الفهم الصحيح والقواعد السوية ، حين ظنوا أن الشعر مما ينقص تدين المرء ويشين تقواه .

وحمل الفقه الشافعي إشارات دالة في تقعيد ضوابط الشعر عامة والغزل خاصة ، فيها بيان عن المحظور والمباح منه ، وهي ذات مساس بتكامل شخصية الشاعر المسلم ، في مباينة خوارم المروءة من جهة ، وذات تأكيد على أن الأدب الإسلامي هو منتج الشخصية الإسلامية من جهة أخرى ، إذ إن هذه الضوابط جاءت في باب رد شهادة الشعراء بأسباب الشعر وأغراضه في المدح والهجاء والغزل[3] ، إذ يقول الشافعي رحمه الله (١٥٠-٢٠٤هـ) : «فمن كان من الشعراء لا يعرف بنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب ، لم ترد شهادته ، ومن أكثر الوقيعة في الناس على الغضب والحرمان ، حتى يكون ذلك كثيراً مستعلناً كذباً محضاً ، ردت شهادته بالوجهين (أي بالمدح والهجاء) وبأحدهما لو انفرد به»[4] .

وإذا كانت معيارية الشافعي في رفض الشعر وردّ شهادة الشعراء رهناً بالإيذاء والإكثار والكذب في المدح والهجاء ، فإنها حادت عن الكذب أساساً في رفض الغزل ، فهل تعني هذه الحيدة إقراراً بصدور الغزل غالباً عن صدق في الإحساس ، وامتلاء المشاعر بالميل نحو الآخر ، ومعاناة حقيقة التجربة ، وفي هذا مقاربة لمقولة : «لا بد للمصدور أن ينفث»؟ فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء . يقول الشافعي : «ومن شبب بامرأة بعينها

---

(١) طوق الحمامة : ص١٩٧ .

(٢) انظر العمدة : ٢٩/١ . «قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً» .

(٣) انظر الشاعر وتجربته في ظلال سورة الشعراء (مجلة إسلامية المعرفة) العدد الثاني عشر ، ١٩٩٨ ، ص٦٥-٦٨ .

(٤) الأم : ٢١٢/٦ .

ليست ممن يحل له وطؤها حين شبب فأكثر فيها ، وشهرها وشهر مثلها بما يشبب ، وإن لم يزن ، ردت شهادته ، ومن شبب فلم يسم أحداً لم ترد شهادته ؛ لأنه يمكن أن يشبب بامرأته وجاريته ، وإن كان يسأل بالشعر أو لا يسأل فسواء»(١) .

ولإباحة الغزل عند الشافعي شرطان ظاهران وملحقان لازمان ، أما الشرطان ، فأحدهما : ألا يكون بامرأة معينة ، ومعنى كونها معينة ، أن تكون معروفة لدى الناس بدال الاسم ومدلوله ، فلا ينصرف الغزل المقول بامرأة إلا لها دون غيرها من النساء ، ويعرف ذلك بظاهر الاسم أو قرائن الغزل وأحواله الظاهرة ، أما إذا تحلل الغزل من ذكر امرأة بعينها ، فلا تثريب على الشاعر في ذلك ، لانفتاح المقاصد ، وانتفاء التحديد ، إذ قد يكون الغزل مقصوداً به حلائل الشاعر من زوج أو جارية .

ولعل معتمد الشافعي في هذا ما أخرجه البغوي في معجم الصحابة والحسن بن سفيان في مسنده والطبراني في الأوسط من حديث مالك بن عمير السلمي أنه شهد مع رسول الله ﷺ الفتح وغيرها وكان شاعراً فقال : يا رسول الله أفتني في الشعر فذكر الحديث «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا» وزاد ، قلت : يا رسول الله ، امسح على رأسي ، قال : فوضع يده على رأسي فما قلت بيت شعر بعد ، . . .» وزاد البغوي في روايته «فإن رابك منه شيء فاشبب بامرأتك وامدح راحلتك» . قال ابن حجر : «بل دلت الزيادة الأخيرة على الإذن في المباح منه»(٢) .

وثانيهما : الإكثار من التشبيب وإشهار المرأة به ، وفي ذلك إيذاء للمرأة ، بأن تضحي حديثاً للسمار ، ومادة لنقلة الأخبار ، وفي هذا الحال تجاف عن الحياء ، ومجانبة للعفاف ، ومباعدة للستر الذي أمر الله به . على أن الإيذاء غير محصور بامرأة ، فقد تنفتح دلالة الاسم على أكثر من معين فيكون الشاعر «شهرها وشهر مثلها بما يشبب» ، فيبتعد المقصود ، ويتسع الخرق على الراقع ، فينال الأذى خلقاً كثيراً من الأهل والنساء إلى أن تستبين القرائن ، وتفصل الأحوال بالمقاصد .

---

(١) الأم : ٢١٢/٦ .

(٢) فتح الباري : ٥٤٩/٣ .

ويستوي هذان الشرطان علة مطردة نفياً لإباحة الغزل ، وإثباتاً لخطره وذمّه ، دون النظر للازمين اللذين احترس الشافعي بذكرهما ، وهما :

أولاً : التشبيب بالمرأة قولاً دون تحقيق فعل بها «وإن لم يزن» ، بمعنى أن الشاعر مؤاخذ بغزله وإن كان قولاً واصفاً ، أو حديثاً شاكياً لحاله مع امرأة معينة معروفة ، دون ذكر لما يكون بينه وبينها من فعل ، ومن غير تصريح لما يجري بينهما من فحش ، إذ إن الفحش والخنا مرفوض سواء أكان بامرأة معينة أو غير معينة .

ثانياً : تفرد الشعر بالغزل واستقلاله به ، أو اتصاله بغيره من الأغراض ، مقدمة ومطلعاً في المدح خاصة «وإن كان يسأل بالشعر أو لا يسأل فسواء» ، بمعنى أن المحظورين في الغزل (تعيين المتغزل بها والإكثار من ذكرها) ملتفت إليهما في مقدمة القصائد المدحية التي يجري ذكر المرأة فيها تمهيداً وتهيئة أو شكوى من حال أو تعريضاً به .

وتداول أهل العلم من الفقهاء إباحة الغزل بما شرطه الشافعي ؛ ألا يكون بامرأة بعينها ، وألا يكون كثيراً مؤذياً بالإشهار لها ، فابن قدامة يحكي رأي الحنابلة في هذا فيقول : «فما كان من الشعر يتضمن هجو المسلمين والقدح في أعراضهم أو التشبيب بامرأة بعينها ، والإفراط في وصفها ، فقد ذكر أصحابنا الحنابلة أنه محرم ، وهذا إن أريد به أنه محرم على قائله ، فهو صحيح ، وأما على راويته فلا يصح ، فإن المغازي تروى فيها قصائد الكفار الذين هاجوا النبي ﷺ ، ولا ينكر ذلك أحد»(١) .

والنهي عند أبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي (ت٤٦٣هـ) مخصوص بفحش الشعر وقبحه وايذائه غزلاً كان أو هجاء ، حيث يقول : «ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى ، وليس أحد من كبار الصحابة ، وأهل العلم وموضع القدوة إلاّ وقد قال الشعر ، أو تمثل به ، أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله»(٢) .

---

(١) المغني : ٤٦/١٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ج١٤٧/١٣ .

والغزالي (أبوحامد محمد بن محمد الغزالي ت٥٠٥) يقرر ذلك في الشعر بقوله : «فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو ، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ، أو على الصحابة رضي الله عنهم ، كما رتبه الروافض في هجاء الصحابة ، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال»(١) .

وقال ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢) : «والذي يتحصل من كلام العلماء في حد الشعر الجائز أنه إذا لم يكثر منه في المسجد ، وخلا عن هجو ، وعن الإغراق في المدح والكذب المحض ، والتغزل بمعين لا يحل ، وقد نقل ابن عبدالبر الإجماع على جوازه إذا كان كذلك»(٢) .

وتكشف مقولات أهل العلم السابقة عن ماهية الغزل المحظور والمذموم ، إذ نجد فيها ذكراً للإفراط في وصف مفاتن المرأة والغزل بها ، والإغراق في التغزل بامرأة معينة ممن لا تحل للشاعر ، بقصر الغزل عليها دون غيرها ، فضلاً عن إيذائها بفحش القول ، والافتراء عليها بقبح الفعل وسوء الخبر . ابتهاراً وابتياراً ، وإغراقاً بالكذب المحض .

فأما النهي عن الإفراط في الوصف وهو ما يخص الغزل الحسي أولاً أكثر من غيره ؛ فلأن فيه تتبعاً لمفاتن الموصوف ، واستقصاء لأجزائه ، والوصف في هذه الحالة ذو وظيفة زخرفية تحسينية ، وذو طبيعة تجسيدية حسية للصورة البديعة التركيب ، وذلك كله مدعاة الإثارة والتلذذ وحفز الشهوة ، فإن لنعت المحاسن تأثيراً في النفوس ظاهراً ، حيث إن «العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنه تولع بكل شئ حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة ، وإن للصورة لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية»(٣) .

(١) إحياء علوم الدين : ٢٨٢/٢ .
(٢) فتح الباري : ٥٣٩/١٠ .
(٣) طوق الحمامة : ص٢٤ .

وكان أبو بكر محمد بن داود الظاهري (ت٢٩٧) قد عدّ هذا الوصف «من التعرض لأسباب المهالك» ، وحذّر من ذلك بقوله : «وليعلم المحب أن وصف ما في صاحبه من الخصال المرتضاة مغر بمن علمها بالمشاركة له في هواه ، ولقد أحسن الذي يقول :

وَلَسْتُ بِواصِفٍ أَبَداً خَلِيلاً ... أُعَرِّضُهُ لأَهْواءِ الرِّجالِ

وما بالي أُشَوِّقُ عَيْنَ غَيْري ... إليهِ ودونَهُ سَتْرُ الحِجَالِ

كَأَنِّي آمَنُ الشُّركاءَ فِيْهِ ... وآمَنُ فيه أَحْداثَ الرِّمالِ»(١)

ويؤكد ابن الجوزي (ت٥٩٧) أثر الغزل في هذا الإغراء بقوله : «إن من أسباب العشق سماع الغزل والغناء ، فإن ذلك يصور في النفوس نقوش صور ، فتتخمر خميرة موصوفة ، ثم يصادف النظر مستحسناً ، فَتَتَعَلَّقَ النفس بما كانت تطلبه حال الوصف»(٢) .

وأكد القرطبي النهي عن الغزل خاصة الحسي ، إذا جمع إلى إثارة شهوة السامع وفتنته بالوصف إطراباً بالغناء ، إذ يقول وهو بصدد تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ : «قلت ومن الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم ، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر ، وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامناً من حب اللهو ، مثل قولهم :

ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ تَحْسَبُ مِنْ ... وَجْنَتَيْهِ النَّارَ تُقْتَدَحُ

خَوَّفُونِي مِنْ فَضِيْحَتِهِ ... لَيْتَهُ وافى وأَفْتَضِحُ

لا سيما إذا اقترن بذلك شبابات وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان»(٣) .

وفي حمى هذا اللون من الوصف الحسي المتقن في الغزل ، فرق الفقهاء بينه وبين الوصف ذي الوظيفة الإيهاميّة والطبيعة التخيلية ، الذي ينقل المتلقي من الواقع المقيد إلى أفق الخيال عن طريق المقايسة والمشابهة ، يقول ابن العربي : «أما الاستعارات والتشبيهات

---

(١) الزهرة : ١/١٢٦ .

(٢) ذم الهوى : ص٢٨٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٣/٨٠ .

فمأذون فيها ، وإن استغرقت الحدّ ، وتجاوزت المعتاد ، فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحَلوا ... إلا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحولُ

تَجْلو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر ، حتى في تشبيه ريقها بالراح»(١) .

فقد حاد ابن العربي بهذا الغزل القائم على الصفة البيانية التخيلية عن ارتباطه بسعاد ، التي هي مطلق امرأة كما سيأتي البيان في ذلك في الغزل الفني ، إلا أن أبا حامد الغزالي يشترط تحرير هذا اللون من الغزل من ارتباطه بمعين ، فيقول : « فأما النسيب بالتشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فهذا فيه نظر ، والصحيح : أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن . وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجة وجارية ، فإن أنزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه ، فينبغي أن يجتنب السماع رأساً ، فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه ، سواء أكان اللفظ مناسباً له أو لم يكن ، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريقة الاستعارة»(٢) .

فهذان لونان من ألوان الغزل نبه الفقهاء على الفرق بينهما ، الغزل الحسي ذي الصورة الاستقصائية البديعة التركيب في دقة الأبعاد والنظام ، والغزل الفني الذي أساسه الإيهام والتخييل ، إذ إنهما وإن كان الإفراط والاستغراق جامعاً بينهما ، فإن الأول فيه حسية مباشرة ، ومبالغة في الاستحسان وإظهار الحسن والمحاسن ، وهو ناتج الشهوة ، والثاني حاجة فنية ورغبة بيانية ، وحسيته باللازم والشبيه ، هذا فضلاً عن أن الأول في معين

---

(١) أحكام القرآن : ١٤٣٤/٣ والجامع لأحكام القرآن : ١٤٧/١٣ .

(٢) إحياء علوم الدين : ٢٨٢/٢ .

مذكور مخصص ، بينما الثاني محرر من التعيين والتخصيص ، وإن ذكرت فيه سعاد وسعدى وسلمى وما أشبه من الأسماء فهي مطلق امرأة ، أو رمز من الرموز المؤتلفة في التمهيد بها مع غرض القصيدة الأساسي .

وثمة لون ثالث : نبه عليه بعض الفقهاء بالنهي ، وهو الغزل الرقيق ، إذ يقول أحمد بن حنبل رضي الله عنه (١٦٤-٢٤١ هـ) : «إنما يكره من الشعر الهجاء والرقيق الذي يتشبب فيه بالنساء ، فتهيج له قلوب الفتيان ، فأما ما سوى ذلك فما أنفعه»(١) .

وعده ابن حزم أحد أضرب الشعر الأربعة المرفوضة الرواية والتداول فضلاً عن الإبداع والقول ، أي أنها مرفوضة إنشاءً وإنشاداً ، إذ يقول«والذي ينبغي تجنبه أربعة أضرب : الأغزال والرقيق ، والأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب ، وأشعار التغرب وصفات المفاوز ، والهجاء»(٢) ، وعلة النهي عن الغزل الرقيق عنده أنه : «يحث على الصبابة ، ويدعو إلى الفتنة ، ويحض على الفتوة ، ويصرف النفس إلى الخلاعة واللذات ، ويسهل الانهماك في العشق ، وينهى عن الحقائق ، حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك في الدين ، وتبذير المال في الوجوه الذميمة ، وإخلاق العرض وتضييع الواجبات» . على أن سماع الشعر الرقيق «قد ينقص بنية المرء الرائض لنفسه ، حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لاسيما ما كان يُعْنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردي جملة»(٣) .

ففي النصين السابقين إجمال للعلة عند أحمد بن حنبل (إهاجة قلوب الفتيان) ، وتفصيل عند ابن حزم للوازم ذلك ، من الحث على العشق والشوق إلى الهوى بحرارة ، والافتتان بالنساء وفتنتهن ، والدعوة إلى الفتوة بإثبات الذات القادرة على المغازلة وإيقاع النساء في حبائل اللهو والمعابثة ، وتهوين المعاصي ، والتردي في المفاسد والفسق ، بالانهماك في طلبه ، بعيداً عن الحقائق ، بالأماني والأوهام والخيال ، بما يبتعد بصاحبه عن الواجبات المنوطة به دينياً واجتماعياً .

---

(١) نضرة الإغريض في نصرة القريض : ص ٢٦٣ .

(٢) رسالة العلوم : ص٦٧-٦٨ .

(٣) رسالة العلوم : ص٦٧-٦٨ .

ويظل الرأي الفقهي السابق المجمل منه والمفصل قاراً في إطار النظرية التي تربط الرقيق بالغزل الماجن، الذي فيه خلاعة وإفساد للمتلقي في دينه ودنياه، غير أن سؤالاً طرح على محمد بن سيرين عن جواز إنشاد الرقيق في المسجد، فجاء الجواب نصاً شعرياً محدداً للرقيق، يختلف في منطوقه الظاهر عما جرى الحديث فيه عند أحمد بن حنبل وابن حزم، إذ قال رجل له: «ما تقول في الغزل الرقيق ينشده الإنسان في المسجد، فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة، وتقدم إلى المحراب فالتفت إليه فقال:

وتَبْـرُدُ بَـرْدَ العَـروس في الصَّيْفِ رَقْرَقْتَ فيـه العَبِيرا

وَتَسْخُنُ لَيْلَةَ لا يَسْتَطِيعُ نُبـاحـاً بهـا الكَلْبُ إلاّ هَرِيرا

ثم قال: الله أكبر»[1].

فالبيتان تمثيل لحالتين لجسم المرأة المتغزل بها، صيفاً حيث تكون باردة عطرة، وشتاء حين تكون دافئة نضرة، وقد وجد فيهما محمد بن سيرين رقيقاً بالنظر إلى انفتاح دلالة الصورتين في الإيحاء بعدد من اللقطات المثيرة للرغبة، والباعثة للشهوة باللمس والشم.

وغير خاف أن النظرة الفقهية إلى الرقيق من الغزل موضوعية، محكومة في آثاره الخلقية ودلالاته النفسية، فهي مركوزة بالمجون المرتبط بالخلاعة والفحش عموماً.

ويَحْمِلُ الرقيق من الغزل معنى خلقياً آخر هو الخضوع في القول والليونة في خطاب المرأة للرجل والرجل للمرأة، وقد عبّر عنه عروة بن أذينة في قوله[2]:

بِيْضٌ نَواعِمُ مـا هَمَمْنَ بِرِيْبَةٍ كَظِبـاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ

يُحْسَبْنَ مِنْ لِيْنِ الكَلامِ زَوانِيـا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الخَنا الإسْلامُ

وقد جاء النهي عنه خاصاً وعاماً في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ

---

(١) العقد: ٢٨٧/٥.

(٢) شعر عروة بن أذينة: ص٣٧٥.

ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾(١) . ومعناه : «لا تُلِنَّ القول ، أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً ، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ، مثل كلام المريبات والمومسات ، فنهاهن عن مثل هذا»(٢) . قال الزمخشري : «القول الخاضع : اللين الخنث مثل كلام المريبات والمومسات»(٣) . وقال عكرمة في قوله تعالى ﴿ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ : «تشوف لفجور ، وهو الفسق والغزل» قال القرطبي : «هذا أصوب»(٤) . وقال السدي : ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ يعني بذلك : «ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال»(٥) .

وليس الخضوع في القول وإلانة الكلام وترقيقه خاصاً بالمرأة ، بل إنه شامل خطاب الرجل للمرأة أيضاً ، إذ إن «خضع الرجل وأخضع : ألان كَلِمَهُ للمرأة ، قال ابن الأعرابي : الخُضَّعُ : اللواتي قد خضعن بالقول وملن ، قال : والرجل يخاضع المرأة وهي تخاضعه ، إذا خضع لها بكلامه ، وخضعت له ويطمع فيها»(٦) .

والخضوع قرين الخنوع في كلام العرب ؛ من حيث طلب السوء والدعوة إليه ، وقد جاء في دعائهم : «اللهم إني أعوذ بك من الخنوع والخضوع» ، فالخانع الذي يدعو إلى السوأة والخاضع نحوه(٧) .

ولما كان الخضوع في القول وترقيق الكلام مثاراً للريبة والسوء ، فقد جاء في الحديث نهي أن يخضع الرجل لغير امرأته ، أي يلين لها في القول بما يطمعها منه ، وفي حديث عمر أن رجلاً في زمانه مرّ برجل وامرأة قد خضعا بينهما حديثاً فضربه حتى شجه ، فرفع

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٧٧/١٤ .

(٣) الكشاف : ٥٢٧/٣ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٧٧/١٤ .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٩٣/٣ .

(٦) اللسان ، مادة خضع : ٤٢٥/٩ .

(٧) اللسان ، مادة خضع : ٤٢٥/٩ .

إلى عمر رضي الله عنه فأهدره ، أي لينا بينهما الحديث ، وتكلما بما يطمع كلاً منهما في الآخر(١) .

وفي دلالة الرقيق الموضوعية الخلقية جاء إلحاق الحديث عن اللذة واللهو والخسارة به ، سواء أكان بالنساء أم بغيره من متع الخمر ولذائذه ، فقد عقب المرزوقي على قول أبي الطَّمْحان القَيْنِيِّ :

أَلا عَلِّلانِي قَبْـــلَ صَـدْحِ النَّــوائِحِ   وقَبْلَ ارتقاء النَّفْسِ فَوْقَ الجَوانِحِ
وَقَـبْلَ غَـدٍ يا لَهْفَ نَفْـسِي على غَـدٍ   إذا راحَ أَصْحَـابِي وَلَسْتُ بِرائِحِ

بقوله : «وإنما جاز أن يودع البيتين باب النسيب لرقتهما ، ولأن المُتَعَلَّل به كان لذة من اللذات»(٢) .

وفي قول شُبْرُمَةُ بنُ الطُّفَيْل في المجون القائم على الخمر والقيان والغناء :

وَيَوْمٍ شَـديدِ الحَـرِّ قَـصَّـرَ طُوْلَهُ   دَمُ الزِّقِّ عَنَّا واصطِكاكُ المَـزاهِرِ
لَدُنْ غُـدْوَةٍ حَتَّى أَرُوحَ وَصُحْبَتِـي   عُصَاةٌ على النَّاهِيْنَ شُمُّ المَنَاخِرِ
كَـأَنَّ أَبارِيْقَ الشَّـمُـولِ عَـشِـيَّـةً   إِوَزٌّ بِأَعْلَى الطَّفِّ عُـوْجُ الحَنَاجِـرِ

قال المرزوقي : «وأدخل هذه القطعة في باب النسيب لرقتها ، ودلالتها على اللهو والخسارة»(٣) .

وللرقيق من الغزل دلالة نفسية عاطفية نجدها في شعر العذريين أكثر من شعر غيرهم من الحسيين خاصة ، وهي البوح بمكنون النفس من آلام الحب بشكوى الهجر والصد ، والتوجع للفراق والبعد ، فقد كان المفضل بن سَلَمة يضع من شعر عمر بن أبي ربيعة ، إذ علق على قوله :

عَـاوَدَ القَلْبَ بَعْضُ مـا قَـدْ شَـجَـاهُ   مِنْ حَـبِـيْبٍ أَمْسَى هَوَانَـا هَوَاهُ

(١) اللسان ، مادة خضع : ٤٢٥/٩ .
(٢) شرح ديوان الحماسة : ١٢٦٧/٣ .
(٣) شرح ديوان الحماسة : ١٢٧٠/٣ .

مَـا ضِـرارِيْ نَفْـسِي بِهَجْـرِةِ مَنْ لَيْسَ   مُـسِيْـئـاً ولا بَعِيْـــــــــدَاً نَوَاهُ

وَاجْـتِنابِي بَيْتَ الحَـبِيْـبِ ومـا الخُلْـــ   ــدُ بِأَشْـهَى إِلَـيَّ مِـــــنْ أَنْ أَرَاهُ

فقال : «إنه لم يَرِقّ كما رقّ الشعراء ، لأنه ما شكا قط من حبيب هجراً ، ولا تألم لصدّ ، وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيبه بها ، وأن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ، ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم ، ألا تراه في هذا الشعر- وهو أرق أشعاره - قد ابتدأ بذكر حبيب هواه ، ووصف أنه هو هجره من غير إساءة ، واجتنب بيته مع قربه ، وفي غير ذلك يقول : «قد عرفناه وهل يخفى القمر» يصف وصفهن إياه بالحسن ويقول :

قَـالَتْ لِقَـيِّـمِـهـا وأَذْرَتْ عَـبْـرَةً   مَـالي وَمَـالَـكَ يَـــــا أَبَـــا الخَطَّابِ

أَطْمَـعْـتَـنِـــي حَـتَّى إذا أَوْرَدْتَنِي   حَـلأْتَنِي لَـمْ أَسْـتَـتِمَّ شَـرابِي»(١)

ومجافاة شعر ابن أبي ربيعة للرقيق مرده إلى أمرين نفسيين ، أحدهما : عدم الخضوع لمطالب الحب ، بما يكون عليه تصوير الحال من الشكوى والإبانة عن مكنون الفؤاد من الأشواق ، وثانيهما : التعالي بالذات وغزله بنفسه ، وذلك بتقديم المرأة طالبة عاشقة له .

ومما يؤكد الجانب العاطفي المتوهج في مفهوم الرقيق ما جاء في وصف شعر عروة بن أذينة ، إذ إنه «على زهده وورعه وكثرة علمه وفهمه ، رقيق الغزل كثيره ، وهو القائل :

إذا وَجَـدْتُ أُوارَ الحُبِّ فـي كَـبِـدي   أَقْـبَلْتُ نَحْـوَ سِـقَـاءِ القَـوْمِ أَبْتَـرِدُ

هَبْنِـــي بَرَدْتُ بِبَرْدِ المَاءِ ظَاهِـــــرَهُ   فَـمَنْ لِنارٍ عَلَى الأَحْـشَـاءِ تَتَّـقِـدُ»(٢)

وللرقيق دلالة خلقية أسلوبية ، وذلك حين يقوم الغزل على السرد ولوازمه من الحكاية والوصف وليونة اللغة في الخطاب ، وكان شعر عمر بن أبي ربيعة نموذجاً وقف منه أهل الفقه والصلاح موقفاً رافضاً ، لما يحمل الفن في غزله من إغراء بالفتنة وتشويق إليها ، وتهوين للمجون ، واللهو بالمرأة ، والعبث بها ، فقد جاء التحذير على لسان هشام بن عروة : «لا ترووا فتياتكم شعر عمر ابن أبي ربيعة ، لا يتورطن في الزنا تورطاً ، وأنشد :

---

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ١٨٥-١٨٦ .

(٢) زهر الآداب : ٢٠٩/١ قال الحصري : «وقد روي هذان البيتان لغيره» .

لَقَـــدْ أَرْسَلْـتُ جَـــارِيَتِـــــي وَقُلْتُ لَهَـــا خُـــذِي حَـــذَرَكْ
وَقُـــولِي فـــي مُـــلاَطَفَـــةٍ لِزَيْنَبَ : نَوِّلِي عُـــمَـــرَكْ»(١)

ويقول ابن جريج : «ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضرّ عليهن من شعر عمر ابن أبي ربيعة»(٢) .

وحدث الزبير بن بكار قال : «حدثتني ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب قالت : مررت بجدك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر ، فقال : ما هذا معك؟ ودعاني ، فجئته وقلت : شعر عمر بن أبي ربيعة ، فقال : ويحك ، تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة؟! إن لشعره لموقعاً من القلوب ، ومدخلاً لطيفاً ، ولو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به ، قالت : ففعلت»(٣) .

وكان بالكوفة رجل من الفقهاء تجتمع إليه الناس فيتذاكرون العلم ، فذكر يوماً شعر عمر فهجنه(٤) . وهو شعر معصية عند أبي المقوم الأنصاري وابن أبي عتيق(٥) . وبالعلة ذاتها كان موقف بعض خلفاء بني أمية صريحاً في الزراية على شعر عمر بن أبي ربيعة ، إذ حج عبدالملك بن مروان فلقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة ، فقال له عبد الملك : «لا حياك الله يا فاسق . . . إنك أطول قريش صبوة ، وأبطؤها توبة»(٦) . ومنعه سليمان بن عبدالملك من الحج في ذلك العام وأخرجه إلى الطائف إلى أن قضى الناس حجهم .

وسبقت الإشارة إلى أمر عمر بن عبد العزيز ، حين ولي الخلافة ، إلى عامله على المدينة ، في التشديد على عمر بن أبي ربيعة والأحوص وحملهما إليه إلى دمشق(٧) . وكان (القباع) الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة والي البصرة لابن الزبير ينهى أخاه

---

(١) الأغاني : ٧٤/١ ، ١٤١ .
(٢) الأغاني : ٧٤/١ .
(٣) الأغاني : ٧٨/١ .
(٤) الأغاني : ٧٥/١ .
(٥) الأغاني : ٧٦/١ ، ١٠٨ .
(٦) الموشح : ص١٨٤ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن : ١٤٩/١٣- ١٥٠ .

(عمر بن أبي ربيعة) عن قول الشعر فيأبى أن يقبل منه ، فأعطاه ألف دينار على ألا يقول شعراً ، غير أنه فتك بعد ذلك وغدر[1] .

ومما يعزز القول بأن الرقيق في الغزل ذو دلالة خلقية ملازمة للدلالة الأسلوبية في السرد والقص والحوار والوصف والخطاب اللين ، المحاورة التي جرت بين أبي غسان دماذ وأبي عبيدة معمر بن المثنى في شعر بشار ومجونه ، حيث تكشف عن الرأي الفقهي فيه ، وتبين عن الموقف الرسمي السلطاني منه ، وتشف عن الرؤية النقدية الموازنة للرقيق في الشعر بين العذريين والمحققين أمثال بشار بن برد ، إذ قال دماذ : «سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي بشاراً عن ذكر النساء ، قال : كان ذلك أول استهتار نساء البصرة وشبابها بشعره ، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد .

فلما كثر ذلك ، وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي ، وأنشد المهدي ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدي من أشد الناس غيرة .

قال : فقلت له : ما أحسب شعر هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثير وجميل وعروة ابن حزام وقيس بن ذريح وتلك الطبقة ، فقال : ليس كل من يسمع الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول وما يريد ، وأي حرّة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها ، فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التي لا همّ لها إلا الرجال ، ثم أنشد قوله :

قَدْ لامَني في خَليلَتي عُمَرُ ... واللَّوْمُ في غَيْرِ كُنْهِهِ ضَجَرُ
قَالَ : أَفِقْ ، قُلْتُ : لا ، فَقَالَ : بَلَى ... قَدْ شَاعَ في النَّاسِ مِنْكُما الخَبَرُ
قُلْتُ : وإذا شَاعَ ، ما اعتِذارُكَ مِمَّا ... لَيْسَ لي فِيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرُ

---

(١) الأغاني : ١/١١٠-١١١ .

ماذا عَلَيْهِمْ وما لَهُمْ خَرِسُوا   لو أَنَّهُم في غُيُوبِهِمْ نَظَروا

أَعْشَقُ وَخِدي ويُؤْخَذونَ بِهِ   كَالتُّرْكِ تَغْزُو فَتُؤْخَذُ الخَزَرُ

يا عَجَباً لِلْخِلافِ يا عَجَباً   بِفِي الذي لامَ في الهَوَى الحَجَرُ

حَسْبِي وَحَسْبُ الذي كَلِفْتُ بِهِ   مِنِّي وَمِنْهُ الحَدِيْثُ والنَّظَرُ

أو قُبْلَةٌ في خِلالِ ذاكَ وَمَا   بَأْسٌ إذا لم تُحَلَّ لِيْ الأُزُرُ

أو عَضَّةٌ في ذِراعِها ولها   فَوْقَ ذِراعي مِنْ عَضِّها أَثَرُ

أو لَمْسَةٌ دونَ مِرْطِها بِيَدِي   والبَابُ قَدْ حالَ دُونَهُ السُّتُرُ

والسَّاقُ بَرّاقَةٌ مُخَلْخَلُها   أَو مَصُّ رِيْقٍ وَقَدْ عَلا البَهَرُ

واسْتَرْخَتِ الكَفُّ للعِراكِ وَقَا   لَتْ إيهِ عَنِّي والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ

اِنْهَضْ فما أَنْتَ كَالَّذي زَعَموا   أَنْتَ وَرَبِّي مُغازِلٌ أَشِرُ

قَدْ غابَتِ اليومَ عَنْكَ حاضِنَتِي   واللَّهُ لي مِنْكَ فِيْكَ يَنْتَصِرُ

يا رَبِّ خُذْ لِي فَقَدْ تَرَى ضَرَعِي   مِنْ فاسِقٍ جاءَ ما بِهِ سَكَرُ

أَهْوَى إلى مِعْضَدِي فَرَضَّضَهُ   ذو قُوَّةٍ ما يُطاقُ مُقْتَدِرُ

أَلصَقَ بي لِحْيَةً خَشُنَتْ   ذاتَ سَوادٍ كَأَنَّها الإِبَرُ

حَتَّى عَلاني وأُسْرَتِي غُيَبٌ   وَيْلِي عَلَيْهِم لَوْ أَنَّهُمْ حَضَروا

أُقْسِمُ باللَّهِ لا نَجَوتَ بِها   فاذْهَبْ فَأَنْتَ المُساوِرُ الظَّفِرُ

كَيْفَ بِأُمِّي إذا رَأَتْ شَفَتِي   أَمْ كَيْفَ إِنْ شاعَ مِنْكَ ذا الخَبَرُ

قَدْ كُنْتُ أَخْشَى الذي ابتُلِيْتُ بِهِ   مِنْكَ فَماذا أَقولُ يا عَبَرُ

قُلْتُ لَها عِنْدَ ذاكَ يا سَكَنِي   لا بَأْسَ إنّي مُجَرَّبٌ خَبِرُ

قُولِي لَها بَقَّةٌ لَها ظُفُرٌ   إِنْ كانَ في البَقِّ ما لَهُ ظُفُرُ

ثم قال له : بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب»[1] .

والباحث في هذه المحاورة يجد فيها أطرافاً ثلاثة ، ذات رؤية متوحدة في تأثير شعر بشار في الإغراء بالفاحشة والترغيب بها ، فأهل العلم من الفقهاء (سوار بن عبد الله ومالك ابن دينار وواصل بن عطاء) يرون شعره داعية الفسق والغواية ، والوقوع في حبائل الشيطان وخدعه ، والمهدي صاحب السلطان يرى في شعره تسهيلاً للمغامرة ، وترغيباً في مجاوزة عسر المواصلة ، خاصة سماع شعره الذي يقول فيه :

قَاسِ الهُمُومَ تَنَلْ بِهَا نُجْحَا ... واللَّيْلُ إنَّ وراءَهُ صُبُحَا

لا يُؤيِسَنَّكَ مِنْ مُخَبَّأةٍ ... قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإنْ جَرَحَا

عُسْرُ النِّساءِ إلى مُيَاسَرَةٍ ... والصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَمَا جَمَحَا

إذ توعده بعد سماع ذلك بقوله : «أتحض الناس على الفجور ، وتقذف المحصنات المخبآت ، والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك»[2] .

ويأتلف رأي أهل الأدب مع الموقف الفقهي والسياسي في هذا اللون من الشعر في قول أبي عبيده : «بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب» .

وإذا كان الإجماع منعقداً في رؤية هذه الأطراف الثلاثة الخلقية المعلنة في تأثيرية هذا الشعر نفسياً وعملياً ، فإن الرأي متفق أيضاً ، وإن كان مضمراً ، على أن الجانب الفني في هذا الشعر أساس في فاعلية جذب المتلقي إليه ، إذ تعاضدت في القصيدة الرائية السابقة ثلاث صور : الصورة المشهدية المجسدة للمعايشة ، المستقصية لأسباب الإثارة وشمول مواضعها ، والإحاطة بمواطنها ، باستخدام (أو) المتكرر للدلالة على الإباحة المطلقة من غير منع ، والإقبال دون إحجام ، أو الإشارة إلى التفصيل والتمييز في كل لقطة وحركة مصورة .

والصورة القصصية ذات الحركة المتوثبة الفعل ، التي لا يغيب عنها بعض اللقطات

---

(١) الأغاني : ٣/١٨٣-١٨٤ .

(٢) الأغاني : ٣/٢٤١ .

المشهدية في قوله : «واسترخت الكف . . .» «وأهوى إلى معضدي . .» و«ألصق بي لحية . . .» و«حتى علاني . .» .

والصورة الخطابية ذات الليونة ، والمجون القائم على استنهاض المرأة لعدد من الأساليب العبثية ؛ بالانحراف في أدائها عن مفاهيمها المتواضع عليها ، كالاستغاثة بنداء الله في هذا الموضع بقولها : «والله لي منك فيك ينتصر» ، «يا رب خذ لي فقد ترى ضرعي . . .» والتهديد بالأهل : «ويلي عليهم لو أنهم حضروا» والقسم بالهلاك : «أقسم لا نجوت بها . . .» والاستفهام المنفتح على الدهشة والاستغراب «كيف بأمي لو رأت شفتي . .» «أم كيف إن شاع منك ذا الخبر» ، «فماذا أقول يا عبر» ، وكذلك الإغراء الذي حمله ثناؤها عليه بالتوكيد تارة بعد النفي «فما أنت كالذي زعموا ، أنت وربي مغازل أشر» وبالتوكيد المستقطع باعتراض النفي : «ذو قوة ما يطاق مقتدر» تارة أخرى ، وتوكيد الصفة بمراعاة نظيرها : «ذو قوة . . . مقتدر» و«فأنت المساور الظفر» و«مجرب خبر» .

على أن هذه المحاورة تذهب إلى التسوية بين شعر العذريين والحسيين المحققين والتفرقة بينهما ، بمعنى أنها تحاول أن تلتمس وجهاً للمشابهة بينهما في رقيق المعاني ، ووجهاً آخر في تجلي المعاني وخفائها ، أو في وضوح المقاصد واحتجابها ، فقد ذهب دماذ إلى التسوية بين الاتجاهين الشعريين بقوله : «ما أحسب شعر هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثير وجميل وعروة بن حزام وقيس بن ذريح وتلك الطبقة» . بمعنى أن إغراء الفتيات بلقاء الفتيان ، وإغواء الرجال للنساء بخدع الشيطان ، من الكلام الرقيق والمعاني الفاسدة - قاسم مشترك بين شعر العذريين والحسيين .

ويأتي ردّ أبي عبيدة على أبي غسان دماذ توضيحاً للفارق بين الاتجاهين في أمرين :

أولهما : إن خطاب بشار الغزلي فيه عموم وخصوص ، فأما العموم فيتأتى من توجهه إلى النساء جميعاً ، الحرائر والإماء ، المحصنات والجواري ، في استنفار مشاعرهن تجاه الرجال ، والتعبير عن ميلهن نحوهم ، وأما الخصوص فيتجه به بشار إلى المرأة الغزلة والفتاة اللاهية ، التي لا هم لها إلا الرجال والاتصال بهم بالمحادثة والمقابلة ، وبمعنى آخر فإن خطاب العذري أشبه برسالة خاصة من رجل إلى امرأة ، واغراؤه مقيد بإقامة علاقة قلبية

ذات مشاعر نظيفة ، لكن بشاراً وعمر وأمثالهما خطابهم عام للرجال والنساء والفتيان والفتيات في مجالس اللهو والفراغ ، وشعرهم مادة للأحاديث والمسامرة ، فيه إغراء وإغواء بمحاكاة المسموع ، ومحاولة مناظرته بإيجاد واقع حقيقي له(١) .

وثانيهما : خفاء مقاصد شعر العذريين ، لأنه لغة الفؤاد وعشقه ، وهو مشحون بالعاطفة ؛ لأنه صدى الداخل وتوتره ، فالوقوف على دلالته قصر على من عاش معاناته ، واصطلى بحرارته ، إذ لا يعرف الشوق - كما قيل- إلا من يكابده ، وعليه جاء قول أبي عبيدة : « ليس كل من يسمع (هذه الأشعار) يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول وما يريد . .» ، إذ إنه يستنفر مشاعرهن تجاه الرجال بالتعبير عن الخارج من لقاء ووصال وما أشبه ، بواقعية حسيّة مباشرة ، بالصورة المجسمة ذات الواقع المحسوس ، وبلغة قصصية (درامية) ، هي لغة الشهوة وليست لغة الحب والفؤاد ، التي يعبر بها العذري عن واقعه تعبيراً وجدانياً .

والحق أننا لا نعدم وجود بعض اللوحات الماجنة ذات القبح في شعر العذريين ، غير أنها تظل دون شعر الحسيين في هذا الباب من حيث معياري الديانة والمروءة ، اللذين أخذ بهما محمد بن داود الظاهري ، إذ فرق بين قول جميل بن عبدالله بن معمر العذري «الذي أحسن فيه :

هَلِ الحائِمُ العَطْشانُ مُسْقىً بِشَرْبَةٍ ... مَنَ المُزْنِ تَرْوي مَا بِهِ فَتُريْحُ
فَقالَتْ فَنَخْشَى إنْ سَقَيْنَاكَ شَرْبَةً ... تُخَبِّرُ أَعْدائي بِهَا فَتَبُوحُ
إِذَنْ فَأَباحَتْنِي المَنَايَا وَقَادَني ... إلى أَجَلِي عَضْبُ السِّلاحِ سَفُوحُ
لَبِئْسَ إِذَنْ مَأْوى الكَرِيْمَةِ سِرُّها ... وَإِنِّي إِذَنْ مِنْ حُبِّكُمْ لَصَحِيْحُ

فقال : ولكن يتلقى هذا الكلام من جميل باليدين ، ويحمل على الرأس والعينين ، إذا سمع كلام الشيخ امرئ القيس :

---

(١) انظر شاعر الغزل : ص٦٩-٧٠ .

فَلَمّا دَنَوْتُ تَسَدَّيْتُها ... فَثَوْباً نَسِيتُ وَثَوْباً أَجُرْ
وَلَمْ يَرَنا كالِئٌ كاشِحٌ ... وَلَمْ يُفْشَ مِنّا لِذا البَيْتِ سِرّ
وَقَدْ رابَنِي قَوْلُها : يا هَنَاهُ ... وَيْحَكَ أَلْحَقْتَ شَرّاً بِشَرّ

. . . فأما هذا النحو من الشعر فلست أنشط لذكره ، لا من شعر امرئ القيس ولا من شعر غيره ، فهو فعل خارج عن حدّ الديانة والمروءة ، وما خرج عن حدّ هذين البابين تعدى عيبه من فاعله إلى ناشره ومستحسنه ، وأما ما ذكرناه في الباب الثامن من وصف اجتماع المحب مع محبوبه ، ومسامحته له فيما يجوز محبوبه ، فهو لعمري معيب من حكاه عن نفسه وعن صاحبه ، إلا أنه عيب لا ينتهك ستر المودة بمثله ، فمن أجل ذلك سامحنا بذكره ، وإن كانت مرتبة الكمال موجبة لغيره»(١) .

ويحمل الرقيق دلالة أسلوبية لغوية ، تنهض بها بساطة اللفظ ، وسهولة التركيب ، وقرب الأداء ، والبراءة من خشونة البادية وغريب ألفاظها ، والتواء تراكيبها ، وهي صفة جمالية بلاغية ، لا تختص بغرض دون غرض ، أو بمكان دون آخر ، ولا بعصر دون غيره ؛ لأنها نتاج الفطرة ، بعيداً عن تكاليف الصنعة من الإتقان وطلبه ، والصقل ولوازمه ، يقول القاضي الجرجاني في ذلك عن الأسلوب الرقيق الرشيق ، وحسن موقعه من النفس : «وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء والبحتري في المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمي العرب ، ومتغزلي أهل الحجاز ، كعمر وكثير وجميل ونصيب وأضرابهم»(٢) . فالأسلوب الرشيق الرقيق يرتفع عن اللفظ العادي وينحط عن الغريب البدوي ، فيه انتقائية للفظ ، لكنها غير موغلة ، لأنها نتاج تلقائية(٣) .

---

(١) الزهرة : ١٢٧/١-١٢٨ .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ص٢٤-٢٥,

(٣)الغزل العذري - يوسف اليوسف : ص١٣٥ .

غير أن ابن عبد ربه يرى أن الرقة ليست اختصاصاً بأهل المدينة دون البادية ، حيث ساق خبراً بإسناد ينتهي إلى إسحق الموصلي الذي قال : «حضرت ليلة مسامرة الرشيد عبثرا المغني ؛ . . . فتذاكروا رقة أشعار المدنيين ، فأنشد بعض جلسائه أبياتاً لابن الدمينة . . فأعجب الرشيد بالأبيات فقال له عبثر : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الشعر مدني رقيق ، قد غذي بماء العقيق ، حتى رقّ وصفا ، فصار أصفى من الهواء ، ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى وأصلب وأقوى ، لرجل من أهل البادية . . .» ثم اندفع يغني بعد إذن الرشيد بأبيات لجرير(1) .

ويدل هذا الوصف على أن الرقيق صفة تختص بالصفاء ، والشفافية في الألفاظ ، وحلاوة الإيقاع ، ولكنها لا تتنافى مع الصلابة والقوة في السبك والنسج .

وفي خبر آخر دلل ابن عبد ربه بالمثال الشعري على الرقة ، فقال معرفاً بابن الدمينة : « . . . وهو أرق شعراء المدينة بعد كثير عزة وقيس بن الخطيم . . .» ثم ساق أبياتاً من بائيته :(2) .

أَمِنْكِ – أُمَـيْمُ – الدَّارُ غَـيَّـرها البِلَى ... وَهَيْفٌ بِجَـــوْلانِ التُّـرابِ لَعُـوبُ

والقصيدة شاهد على الرقيق من الغزل في ظاهرتين :

الأولى : أسلوبية : في ليونة اللغة ، وبساطة التعبير كما في قوله :(3)

أَحَـقّـاً عِـبَـادَ اللّه أَنْ لَسْتُ صـادِراً ... ولا وَارِداً إلاّ عَـلَـيَّ رَقِـيْـبُ

ولا نَـاظِـراً إلاّ وَطَـرْفِـيَ دُوْنَـهُ ... بَعِـيْـدُ المَـراقِي في السَّمَـاءِ مَـهِـيْبُ

ولا مَـاشِـيـاً وَحْـدِي ولا في جَـمَـاعَـةٍ ... مِنَ النَّاسِ إلاّ قِـيْـلَ : أَنْتَ مُـرِيْبُ

---

(1) الغزل العذري – يوسف اليوسف : ص١٣٥ .

(2) العقد : ٣٢/٦ .

(3) العقد : ٨٠/٦ . وقد وهم ابن عبد ربه في عده ابن الدمينة مدنياً ، إذ إن قبيلة خثعم التي ينتمي إليها ابن الدمينة كانت تقيم في أعراض نجد : بيشة وترج وتبالة والمراغة . . . (انظر ديوان ابن الدمينة ، دراسة أحمد راتب النفاخ : ص٣١ - ٣٣) .

وَهَلْ رِيْبَـــةٌ في أَنْ تَحِنَّ نَجِـيْـبَـــةٌ   إلى إلْفِـــهَـــا أو أَنْ يَحِنَّ نَجِـــيْـبُ
لَـكِ اللّهُ ، إنِّـي وَاصِلٌ مـــا وَصَلْتِنِي   وَمُـــثْنٍ بِمَـــا أَوْلَيْـــتِنِي وَمُـــثِـيْـبُ
وَآخِـــذُ مـــا أَعْطَيْتِ عَـــفْـواً وإنَّني   لأَزْوَرُ عَـــمَّـــا تَـكْرَهِـينَ هَـيُـــوبُ
فَــلا تَتْـرُكِي نَفْـسِي شَـعَـاعـاً فَـإنَّهـا   مِنَ الوَجْـدِ قَـدْ كَـادَتْ عَلَيْكِ تَذُوبُ

الثانية : نفسية وجدانية : في شكوى الهجر ، والإبانة عن ألم الصد ، ومطاوعة الوشاة كقوله :(١)

وَقَـدْ جَـعَلَ الواشُـونَ عَـمْـداً لِيَـعْلَمـوا   إليَّ مِنْكِ أَمْ لا - يا أُمَـيْـمَ - نَصِـيْـبُ
أُمَـيْمَ انْصِـبِي عَـيْنَيْكِ نَحْـوي تَبَـيَّنِي   بِجِـسْـمِـيَ مِـمَّـا تَفْـعَلِيْنَ شُـحُـوبُ
. . . ألا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكِ هَلْ تَذْكُرِينَني   فَـذِكْـرُكِ في الدُّنيـا إليَّ حَـبِـيْـبُ
وَهَلْ لِـي نَصِـيْـبٌ في فُـؤَادِكِ ثَابِتٌ   كَـمَـا لَكِ عِنْدي في الفُـؤَادِ نَصِـيْـبُ
فَلَسْتُ بِمَـتْـرُوكٍ فَـأَشْـرَبَ شَـرْبَةً   ولا النَّفْسُ عَـــمَّـــا لا تَنَالُ تَطِيـبُ
فَـلا خَـيْـرَ في الدُّنيـا إذا أَنْتَ لَم تَزُرْ   حَـبِـيْـبـاً وَلَمْ يَطْرَبْ إليكَ حَـبِـيْـبُ

مما سبق يمكن القول إن الرقيق من الغزل الذي خصه بعض الفقهاء بالكراهة ، وتلقاه بعض آخر بالرفض ، هو ما كان انحرافاً عن فطرة التعبير عن مشاعر الأنا النقية تجاه الآخر(المرأة) ، أو ما كان تمرداً على القيم الخلقية ؛ بتهوين الفاحشة وتسهيل الوصول إليها ، بأساليب السرد من الحكايات المتخيلة ، واللقطات الوصفية الماجنة ، لما قد يجري بين الرجل والمرأة إذا التقيا ، فضلاً عن المحاورة بالرفث وخضوع القول .

ولعلَّ الرقيق بهذا الاتجاه من أخطر الغزل ، لأنه يحدث تفكيراً عند المتلقي ، إذ إنه يعطي خبراً ، ويخيل له واقعاً ، فيتحول إلى مفهوم (معلومات ذات واقع محسوس) بالقص ، وتمثيل المواقف بالوصف ، فيصبح المعنى والخيال مدركاً بالحس ، مستقراً في النفس ، موجهاً للسلوك .

---

(١) الديوان : ١١٠ ، ١١٧-١١٨ .

أما شكوى الهجر ، والتألم من الصد ، فيظل من باب : «لا بد للمصدور أن ينفث» ، أو من باب : في «اللدود راحة المفؤود» ، ما لم يكن بمعين ، وأما رقة اللفظ وبساطة التركيب ، وسهولة التعبير ، ونقاؤه من الخشونة والغرابة ، فمذهب أسلوبي فيه نقاء الفطرة ، وشفافية الإحساس في الحب والغزل ، إذ إن «حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين»(١) .

وأما التغزل بمن لا يحل للشاعر عند الفقهاء ، فهو مصروف إلى اللون الرابع من الغزل ، وهو غزل الأعراب ، كما يسميه ابن حزم ، أو الغزل العذري الذي طارت شهرة قبيلة عذرة فيه ، على الرغم من وجود صفاته وأعرافه في قبائل بدوية أخرى مثل القبائل اليمانية ، حيث انقطع بعض الشعراء للغزل بامرأة معينة ، فكان جميل وبثينة ، وكثير وعزة ، وعروة بن حزام وعفرة ، وقيس بن الملوح وليلى ، وقيس بن ذريح ولبنى ، وتوبة بن الحمير وليلى . . . إلخ .

وكان هذا الغزل في فئة من الشعراء ضرباً من الوله المغرق الملحق بصاحبه اللوثة والجنون ، إذ أفقده عقله وصوابه ، فبدا هائماً في حبه منقطعاً للحياة به ، فغدا مريضاً بالعشق لا برء له منه إلا بالدعاء له ، لأنه ابتُليَ به ، إذ استحسان الحُسن ، كما سبق في قول ابن حزم ، وتمكن الحب طبع لا يؤمر به الإنسان ولا ينهى عنه «إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة»(٢) ، «وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة ، وتمكن الخلط السوداوي خرج الأمر عن حد الحب إلى الوله والجنون ، وإذا أغفل التداوي في الأول إلى المعاناة قوي جداً ، ولم يوجد له دواء سوى الوصال»(٣) . على أن البلاء قد يبلغ درجة «إذا بلغ المشغوف إليها فقد انبت الرجاء ، وانصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد في الدماغ ، وتلفت المعرفة ،

---

(١) العمدة : ١١٦/٢ ،

(٢) طوق الحمامة : ص٦٠ .

(٣) طوق الحمامة : ص١٣٨ .

وتغلبت الآفة»[1] . ولا شأن للإرادة في هذا المجال لأن تعطيل الإرادة أصيل في الهوى كله ، كما يقول العقاد ، ولا سيما الهوى الذي نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام[2] ، وهذا الرأي وذاك مخالف لما ذهب إليه ابن القيم في إرادية الحب كما سيأتي بيانه .

وكان هذا الغزل في فئة أخرى ضرباً من التقليد والمحاكاة واللهو والعبث[3] ، قلة مبالاة من المحب ورضى بظهور سره ، في أحاديث تنشر ، وأقاويل تفشو ، إما لإعجاب وإما لاستظهار بعض ما يؤمله . ويستوي في هذه الغاية الرجال والنساء ، إذ فيه جانب نفسي يتحقق ، وهو الشهرة ؛ فقد كان كثير عزة واحداً من هؤلاء[4] ، يقول ابن حزم : «وقرأت في بعض أخبار الأعراب ، أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن ، ولا أدري ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى»[5] .

ولقد وعى شعراء عصر الرسالة وما بعده هذه الضوابط الشرعية لحدود النظرية الإسلامية في الغزل ، فكان العدول إليها إيجابياً ، والانحراف عنها سلبياً فحادوا عن الغزل الحسي المباشر في تجسيم المفاتن الأنثوية إلى الغزل الفني في مقدمة القصيدة ، الذي استوعب جانباً من ميولهم الحسية الفنية السريعة ، التي لم تكن تأملية استيعابية شمولية ، بل كانت سريعة تلبي الحاجة الفنية في تهيئة المتلقي في المقام الأول والأساس .

ووجد بعض الفقهاء ميلاً في التنفيس عن ميله الفطري إلى المرأة ، وإحساسه بالحب نحوها ، بالنظر إلى أن القلوب بيد مقلبها ، وأن الحب كما يقول ابن حزم ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة[6] ، فكان الغزل الفقهي القانع بإظهار الحرقة والأسى والألم عذرياً حقاً .

---

(١) طوق الحمامة : ص١٤٠ .

(٢) جميل بثينة : ص٣٤ .

(٣) انظر الغزل في عصر بني أمية ، د . إحسان النص : ص١٩ .

(٤) انظر المرجع السابق : ص١٩ .

(٥) طوق الحمامة : ص٦٧ .

(٦) طوق الحمامة : ص١٩ .

غير أن بعض الشعراء تحلل من الضوابط ، وتعدّى الحدود ، حين لجأ إلى الغزل الرقيق قصداً إلى الكيد الاجتماعي أو السياسي ، فانزلق إلى الهجاء بالغزل ، فابتهر المرأة بأقاصيص وأخبار ، هي الكذب المحض الذي ذكره بعض الفقهاء حداً فيصلاً بين المباح وغير المباح من الشعر[1] فكان إيذاؤه مزدوجاً ، وإثمه مضاعفاً .

ويبقى بعد ذلك لون من الغزل بدأ به المتكلمون في مخاطبة المرئي الظاهر خطاب المعقول الباطن[2] ، وانتهى عند المتصوفة بخطاب الذات الإلهية خطاب المرأة ، في غزل فلسفي صوفي ، التزم به شعراء متأخرون ، فصار لديهم مذهباً وطريقاً في التعبير عن الأشواق الدينية نحو الله عز وجل ، وعابه فقهاء بأسباب ورؤى شرعية فكرية . وهو ما يحتاج في تغطيته إلى دراسة خاصة ، لا يستوعبها هذا البحث .

---

(١) فتح الباري : ٥٣٩/١٠ .

(٢) طوق الحمامة : ص ٢٥ .